زِحامُ الكلام

زحامُ الكلام

نصوص

أيمن سعد ربيع

تصميم الغلاف: بلال محمد

رقم الإيداع: 2020/2298

I.S.B.N:978- 977-6640-76-4

الطبعة الأولى2020م

الإدارة: 17 ش عزت باشا المطربة، القاهرة.

المدير العام: آية سعد الدين

مدير النشر: د. رامي عبد الباقي

هاتف: 01099387500 - 01147633268

E – mail:zeinpublish2017@gmail.com
Facebook: Zein Publish

جميع الحقوق محفوظة©

أيمن سعد ربيع

زحامُ الكلام

نصوص

إهداء

إلى أبي الذي رباني فأحسنَ تربيتي، وعلّمني فأحسنَ تعليمي، إذ يقول لي: خذ الكتابَ بقوة.

وإلى أمي التي أحسنتْ لي.. لها الحُسنى وزيادة.. إذ تقولُ لي: خُذ الكتابَ بِحُبٍّ.

وإلى أخي الأصغر (مُحمد)، الذي يعلمني كلَ يومٍ كيفَ أكونُ أبًا.. إذ يقولُ لي: اترك الكتابَ والعب معي.

ولأصدقائي أينما كانوا، إذ يقولون لِصاحبِهم - أنا صاحِبُهم -: لا تحزنْ، إنَّا معك.

وإلى الثورة..

الثورة..

الثورة..

الخامِس والعشرينَ مِنْ يناير بالطبْع....

"لا تنْتمي القصائدُ لأولَئِكَ الذين يكتبُونَها، بلْ لأولئِكِ الذينَ يحتاجُونَها"

- بابلو نِيرودا

(زِحامُ الكلام)

عن الأحلامِ البعيدةِ، والوطنِ الخائف، والأُمنياتِ المُجنَّحةِ، ورسائلِ الحُبّ، وحُمَّى الحنينِ، والضَحِكِ المُرتَجَل.

زِحامُ الكلامِ، لي ولك، عنّي وعنك.. قد يبكيكَ ويُحزنكَ وقد يُسعدكَ ويُضحككَ، لكنّه أبدًا لنْ يخذلَك.

تستطيعُ أنْ تقتبسَ منه قُبلةً على جبهةِ أُمكَ، أو جوابًا لِحبيبتكَ، أو دمعةً لأحزانكَ الصغيرةِ.

تستطيعُ أن تنسبهُ لنفسكِ أيضًا، لكنكَ أبدًا لنْ تستطيعَ أنْ تنتزِعني مِنه.

أيمن.

(مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا)

رأيتُ فيما يرى النائمُ، غرفةً صغيرةً وضيّقةً، تملؤها كلماتٌ مختنقةٌ وحروفٌ متكسرةٌ، وجملٌ مبتورةُ الأطرافِ وأنا.

في ركنٍ باردٍ، أجلسُ كئيبًا مُنْزويًا، تأكلُ الظلماءُ عيني، أحاولُ رأبَ الصَّدعِ، ورتْقَ الفتقِ بين القلمِ وبيني؛ لِأُكملَ قِصتي.

لكنني إنْ قبضتُ على النِقاط؛ تكسَّرتِ الحروفُ.. وإن رمَّمْتُ الحروفَ؛ تفككتْ قبضتي وانسكبتِ النِقاط.. وإنْ سكنتْ النِقاطُ على الحروفِ؛ تاهَ مني السطرُ وغابَ.

على مرمى حجرٍ مِنّي، يرقدُ قلمي - قلمي المعبَّأُ بالدموعِ والسنابلِ - مجروحًا ينزفُ بلا توقُّف.

ثم مِن أقصى الحُلُمِ، جاءَ رجلٌ يسعى، وضعَ النِقاطَ على الحروفِ، أعادَ للجُملِ أطرافها المبتورةَ، قيَّدَ السطرَ وضمَّدَ جُرحَ القلمِ، أكملَ القصةَ ثُم تولّى إلى الظِلِّ.

أغنية

هيَّا نَكتُبْ كِتابًا
الصفحةُ الأولى لكْ
والأخيرةُ لِي
وما بينهما لِلزمَنْ.

هيا نَكتُبْ كِتابًا
الاسمُ لِي
والرسمُ لكْ
والإهداءُ لبائعةِ الذكرياتْ.

هيا نَكتُبْ كِتابًا
عن أيادي الحُبْ
المحْشوَّةِ بالديناميتْ
وأقبِيةِ الغرامْ
المُفخَّخَةِ بالألغامِ والوهمْ.

هيَّا نَكتُبْ كِتابًا
عَنْ شَمعةٍ تآكلَتْ
فوقَ مائدةِ العشاءِ الأخيرْ
وقمرٍ مُخْتنِقْ
تُغيظُه أعمدةُ الإنارةِ الطويلةْ.

هيَّا نَكتُبْ كِتابًا
عَنْ الكُتبِ المغلَّفَةِ بِالبَارودْ
ونِفاياتِ الحربْ.
عَنِ الأغاني المُعبَّأةِ في زجاجاتِ
السهرِ والحنينْ.

هيَّا نَكتُبْ كِتابًا
عَنْ الشاعرِ الفقيرِ
الذي يَحتسي قهوةَ الصباحْ
وهو يلمّعُ الأحذية
لسارِقِي الثوراتِ وتُجَّارِ البَصلْ.

هيَّا نَكتُبْ كِتابًا
عَنْ مَسجدٍ مُمتلِئ
بآكِلي الحُقوقْ
وسارِقِي الولْدانْ
مِنْ أثْداءِ الأُمَّهاتْ.

هيَّا نَكتُبْ كِتابًا
عَنْ بلدٍ بعيدْ
الكُلُّ فيهِ يُغنّي
أُغنيةً قديمةْ
لِرُعاةِ الغَنمْ:

"في آخرِ الحقلْ

تنتظِرُني فتاةٌ صوفيةْ
قَلبُها مِخْمليّ
وفمُها مُقيدٌ بالسلاسلْ
أنا آتٍ..أنا آتٍ"

هيَّا نَكتُبْ كِتابًا
نزرعهُ في الحدائقْ
ننْثرهُ على عابري الوِديانْ
نغرسُه في جيبِ قُطَّاع الطرقْ
وتُجارِ الأعضاءِ البشريةْ.

لا. لَنْ نكتبَ كتابًا
فيداي مُنشغلتانِ
بتقشيرِ جُدرانِ السجنْ
وتمزيقِ أحشاءِ الخوفْ.
ويدُكَ الرقيقةُ - يا صديقي -
على مشنقةِ الأحلامْ
عُلِّقت بحبلٍ سُرِّي.

سنغنّي أغنيةً بيضاءْ
عن رسائلِ التلغرافْ
التي لمْ تصلْ.
اللحنُ لكْ
والصوتُ لي
وما بينهما لِلَّيلِ الطويلْ.

لا. لنْ نُغني أغنيةً بيضاءْ
فحناجِرُنا مبْحُوحةْ
بالنشيدِ الوطني
وصوتُنا سُرِق
في زحامِ التظاهراتْ.

سنحفرُ نفقًا سِريًّا
نهرّب مِنه الشموسَ والخُبزْ
أوّله قلبي
وآخرهُ قلبكْ
وما بينهما قلوبُ الأصدقاءْ.

لا. لَنْ نحفرَ نفقًا
فقلبي مع نادلةِ المطعمْ
التي صَفعت الشرطي الخائنْ
وقلبُك - يا صديقي -
اختلَسه سماسرةُ الحُبْ
وقلوبُ الأصدقاء
غرِقتْ مع عبَّارةِ الموتى.

تقولُ:
بالأملِ يا صاحبي
نكتبُ كتابًا
ونغنّي أغنيةً

ونحفرُ نَفقًا.

أقولُ:
مَهلًا، يا صديقي
نحنُ موتى
ألا تذكرْ
ألمْ يقتلنْا الحنينُ البارحة!

(بطاقة هُويَّة)

أنا المقتولُ وقاتِلي ونصلُ السكينِ الذي بهِ قُتلت..
أنا الماءُ ومجراهُ والصخرةُ التي اعترضتْ طريقَه..
أنا النارُ، وجذْوتُها، والترابُ الذي انهالَ عليها ليطفئها..
أنا الذاكرةُ، ووعاؤها، والثقبُ الذي فيها..
أنا الطريقُ وعابرهُ، وقاطعه..
أنا الطبيبُ والمريضُ والمرَض..
أنا المصحِّحُ والمُخطئ والخَطأ..
أنا الصوتُ، ومُذيعه، وكَاتِمُه..
أنا الحريةُ، وثائِروها، وسجَّانُها..
أنا الفتنةُ، ومُوقِظُها، ووائِدُها..
أنا الدمُ، وحاقِنُهُ، ومُرِيقه..

أنا صاحبُ تلك الكلماتِ، وخاطِطُها على الورق..
وأنا مانِعُها من النَشر.

(ثورةُ الشَّك)

لم يحدث أبدًا أن كنت متأكدًا بخصوص أي شيء في حياتي؛ وكأن الله قد غمسني في بحر الشك قبل أن ينفخ فيَّ الروح.

أغلب إجاباتي وآرائي محشوة بكلماتٍ من قبيل: أظن ذلك، على ما أعتقد، لست متأكدًا، من المحتمل، ربما.

أطرق أبواب اليقين بحذر، ثم أقف على العتبات شاكًا متذبذبًا حيرانا.. يُفتح الباب، ويسأل أحدهم: لِم طرقت الباب؟ فأجيب: أبحث عن اليقين. والله أعلم.

أذكر تلك المرات التي ذهبت فيها للكُتَّاب، غير عابئ بحالة شيخي النفسية من سخطٍ أو انشراحٍ، ولا بتدقيقه في حفظي لجزءٍ من القرآن كان يسمى "لوحًا".

أذكرها جيدًا؛ لأنها تُعدُّ على أصابع اليد الواحدة.

أما تلك المرات التي ألهب فيها شيخي قدمّي بالعصا؛ فإني لا أذكرها؛ لأنها أكبر من العد.. أكبر من تلك الأرقام التي تعلمناها.

مراتٍ ومراتٍ، يتكرر ذلك المشهد:

طفلٌ صغيرٌ في طريقه إلى الكُتَّاب، يركل الحصى بقدميه، في إحدى يديه مصحفٌ، واليد الأخرى تمسك بقلبٍ مرتجفٍ يكاد يثب من مكانه.

الطفلُ نفسه، يعود من الطريق نفسه، منكس الرأس لا يركل حصى ولا يحمل مصحفًا؛ لما لحق بيديه وقدميه من آثار ضربٍ مبرح.

حتى إذا اقترب من البيت اعتدل في مشيته، وأخرج من جيبه ابتسامةَ ثغرٍ، وإشراقة مُحيا.

في تلك الأيام، كان اليقين الأول: الضربُ مؤلم ومهين، والكذب سيئ لكنه يوفر الحماية لبعض الوقت.

حتى اليوم، أتذبذب حين أقرأ سورة "البيّنة".
كبرت قليلًا، وصارت سنوات عمري تُحصى في خانتين، وكبر معي شكي وتذبذبي، وصار يحصى في عشرين خانة.
ثم كان الحب.
لم يحدث أن وقعتُ في غرام فتاة أبدًا.. أقصد أني لم أحب فتاة واحدة أبدًا؛ لأنني أحب كل الفتيات، إنْ صادفت شاحنةً معبأة بالفتيات الجميلات؛ فإنني بالتأكيد أعشقهن جملةً واحدة؛ حتى إذا صارت الشاحنة خلفي بِمقدار قدم نملة أو لسان عصفور؛ نسيتهن جملةً واحدة.
ذلك أني لست متأكدًا بخصوص ما يجعل الفتاة مميزة في نظري، غير قابلة للنسيان. تترك علامة في القلب كالوشم الأخضر.
التحقت بكلية الطب، وصار الوضع متأزمًا؛ فالكل هنا متفوقون بدرجاتٍ متفاوتة.
ومن اليوم الأول، عرفت موضعي في سلم التفوق هذا: (الدرابزين المهترئ).
لم تكن تلك دعابة، أو ربما هي كذلك لست متأكدًا حقًا.. لكن إن كتبها الله لك أو عليك؛ ستكتشف أنها دعابةٌ واقعية مؤلمة.
خياران لا ثالث لهما: أن أضع دراستي على قمة أولوياتي، باذلًا لها ما استطعت وما لم أستطع من الجهد والوقت والاهتمام، مما يعني – بالتبعية - عدد أصدقاءٍ أقل، وساعات مرحٍ منعدمة، وأسمار لا تحدث إلا في الخيال.
أو أن أرضى بموقعٍ متدنٍ وتقدير سيئ كل عامٍ، مع حياة حافلةٍ بالأصدقاء - وأشباه الأصدقاء - وأيام مرحٍ زائفٍ بعدد أيام العام وكل عام، وأسمارٍ لذيذةٍ ولكنها كالفقاقيع.

بالطبع لستم في حاجة لأن أخبركم أي اختيار وقعت عليه!
نعم، اختيارٌ ثالثٌ متعارفٌ عليه: سأجتهد ما وسعني الجهد، وسأذاكر بذكاءٍ، محافظًا في ذلك على صداقاتي ومجلسي في واسطة حلقات السهر والسمر.. أحقق المعادلة الصعبة: تفوقٌ دراسي وحياة اجتماعية صحيّة!
أظن أنكم تعرفون بقية الحكاية؛ فلا تضحكوا مني أرجوكم.
أحببت الكتابة، وانفجر في رأسي ينبوع من الأفكار الخلاقة التي تتوسلني أن أدونها؛ ولكنني لم أكن متأكدًا: هل أريد أن أصير كاتبًا حقًا، أم أنها نزوة شيطانٍ وأضغاث أقلام!
كتبت وكتبت وكتبت، وبعدُ لم أصغ لنفسي خارطة طريق تحتوي موهبتي ودراستي دون إفراطٍ أو تفريط.. إذ حين تدرس الطب؛ تجد أن بعض الأشياء البسيطة جدًا كدخول الخلاء مثلًا، قد تتعارض مع دراستك بشكل من الأشكال، فأنت تعاند الوقت هنا، والوقتُ لا يُعانَد.
كاتبٌ بمشرط جراح: أستأصل الأورام بسن القلم، وأتحسس وقع الكلمة بالمنظار والسماعة.
هذا ما أريد أن أكونه، أظن ذلك.
حسنًا، لست متأكدًا تمامًا، ولكنه يبدو مناسبًا، أليس كذلك؟!

(يعقوب)

على جانب الطريق رأيته.. بيدهِ عصا يتوكأ عليها ويهشُّ بها الذبابَ ونظرات العابرين.. شاربهُ في فمِه.. وفي قبضتهِ مصحفٌ صغيرٌ وتذكرةٌ لفيلمٍ صار منسيًّا.

تقابلتْ أعيننا.. ارتبكتُ.. اتسعت عيناه بشكلٍ مخيفٍ. ارتعبتُ.. أشارَ لي أنْ اثبتْ.. لم أُعِرهُ اهتمامًا ومضيتُ في طريقي. لا تخلو شوارعُ المدينةِ من الشحاذين والمجذوبين والمجانين.

ألقى عصاهُ والمآربَ الأخرى.. عبرَ الطريقَ السريع.. دهمتهُ سيارةٌ متمهلة.. وقع على مبعدةِ سنتيمتراتٍ قليلة منها.. وبين غمضةِ عينٍ وانتباهتها، كان منتصبًا كأن لم يلقَ في عبوره هذا نَصبًا. قبضتهُ على المصحفِ والتذكرةِ لم تتفكك.

التقت أعيننا عن قربٍ تلك المرة، وضع يده على شَعري.. أجفلتُ.. الطيرُ يُجفل.. تقهقرت خطوتين.. طمأنني بنظرة.. ارتخيتُ واقتربتُ.

(إني لأجدُ ريحَ يوسف) قال بصوتٍ خفيض.

مرر إبهامه على حاجبي الأيسر، تحسس مفرقَ شعري.. ضغط ضغطتين على حلمةِ أذني.

أخرج صورةً من غيابتِ جيبِ بنطالهِ القديم.. وألقى عليها نظرةَ مُستظْهِر. نقّل طرفه بين الصورةِ وبيني.. وضعها حذاءَ وجهي، ثم شدّ ظهرهُ، وباعد بين الصورةِ وبينه.

(عسى اللهُ أن يأتيني بهم جميعًا) قال بصوتٍ حزينٍ يخرجُ من بئر.

أعادوا له العصا، وأعاد الصورة إلى جيبه.. مرت امرأةٌ تعرفه.. (تالله إنك لفي ضلالك القديم) قالت. نظر ثم أشاح.. سأل عن طريق السينما، فتح المصحف (وابيضّت عيناهُ من الحزن).

(لا وطن لي، وطني بيتي وقلُوبُ الأصدقاء)

حاولت مراتٍ ومراتٍ أن أصمد في تلك النقاشات العصبيَّة العصِيْبة، التي يتبارى فيها الصاحب وأصحابه، يدافع هذا عن مدينته، وآخر يشكك في كلامه، وثالثٌ يسرد تاريخ حيّهم الذي لولا صروف الزمن ونوائب الدهر، لكان قِبلة العالم وقابِلَتَه، ورابعٌ يندفع في مدح مدينته الحقيرة وأهلها الذين لا يعرف منهم إلا الأقلين عددًا.

ولكن ما إن يتطرق الحديث إلى تلك النقطة؛ حتى أجدني قد فقدت ثلاثة أرباع شهيّتي للكلام، وفقدت معها شهيتي للجدال فقدانًا كاملًا.

ذلك أني أجد الأمر بسيطًا سهلًا، تريد أن تعيب مدينتي؟ تفضّل، قل ما بدا لك.

لن ينقص ذلك من شوارعها شارعًا، ولن ينتقص ذلك من مقادير رزقها التي قسم الله لها مِقدارًا واحدًا، ولن يُنزل ذلك على أهلها قِطعًا من الليل مُظلمًا؛ فيغرقون في حزنٍ عميق.

وإن أنت أردت – مشكورًا - أن تمتدحها؛ فلن يعنيني ذلك كثيرًا أيضًا؛ فلن ينقص ذلك من مُشرّديها واحدًا، ولن يمنع خيانة الدفء في الشتاء، ولن يحجب نقائصها البادية للعيان، ولن يجعلني أهرولُ وأهل مدينتي حافين في الشوارع، مُهللين شاكرين الله أن منَّ علينا بمدحٍ منكَ وإشادة!

ستظن أنني وغدٌ كبير، جبانٌ رِعديدٌ، منعدم الولاء والانتماء.

معك حق فعلًا، أضف إلى تلك النعوت التي تُعدُّ - بتلقينٍ جمعيٍّ - سبابًا جارحًا، صفة الخيانة.

فأنا خائن محترف، أحترف خيانة الأماكن، خنت القرية مع المدينة، ثم خنتُ المدينة مع العاصمة، وفي كل ليلةٍ أخون العاصمة مع أقمار السماء، مُتكئًا في ذلك على قول ابن الرومي:

ستألفُ فقدان الذي قد فقدته

كإلفكَ وجدان الذّي أنت واجدُ.

أحاول -عبثًا- أن أعدلَ بين الثلاثة بجمعِ وُدّهم في قلبي؛ فأجِدُني مُعلّقًا حيران لا أستطيع.

أبيع ولائي للمكان الذي يشتريه، بالثمن الذي أحدده.. وما الثمنُ إلا شمسُ سلام لا تأفل، وأقمارُ طمأنينة لا تنخسف، وطموحٌ لا يُغتال، وأحلامٌ لا تُسفّه، وجباهٌ لا تنحني، وظهورٌ لا تُقصم، وأنوفٌ لا تُرغم، وصفوُ بالٍ لا يُكدَّر، ووجوهُ أصدقاءٍ مستبشرة كأنها كالأهِلّة النيّرة.

يكتنف الدفء ذلك كله ويغطّيه، ويسدل عليه الليل أستاره الرقيقة، فلا تنداح إلا مع مقدم فجر الصباح المُحمَّلة بأنسام العدل والوئام.

إن الذي أعنيه بخيانة المكان، خيانة الجغرافيا والطبيعة، خيانة الجدران والطرق، لا خيانة القلب والروح والذكريات.

إن الذين يُقدسون الجغرافيا لا يختلفون كثيرًا عمّن يقدسون البقر، أما أولئك الذين يحفظون التاريخ والعهد والذكرى، فأولئك هم المُخلصون حقًا، البريئون من جُرم الخيانة.

وهبْ أن الإنسان غادر أرضًا اعتاد سُكناها، ألِفَ شوارعها وأَلِفتْهُ، فهل تغادرها روحه أو يفارقها قلبه!!

مُخطئ من يظن محمدًا غادر مكة يوم الهجرة، أو هي غادرته.

لقد كان بينه وبينها، ذلك الخيط الرقيق الخفي، خيط الذكرى.

ذكرى البيت الذي شهد حبه الأول خديجة أم المؤمنين.

ذكرى الأيام الطوال في حراء، يتعبدُّ فيها ويهبط عليه الوحي.

ذكرى أصحابه الضِعاف المساكين الذين تحملوا من أجله ومن أجل دعوته وجعًا تنوء بحمله جبال الأرض مُجتمعة.

غادر مُحمدُ مكة لتعيش فيه، بُعده عنها كان هديته لها، أسس وطنًا جديدًا في المدينة، حقق فيها آماله العِظام، ووجد فيها ما ضنّت به عليه أرضه التي وُلد فيها.

وجد الطمأنينة والسيادة، وجد الأتباع المُخلصين والأصحاب الأفذاذ، أوجد العدل والسلام، أوجد الدولة السامية القوية.

ها هو يعود يومَ الفتح فتتذكره شوارع مكة ويتذكره أديم أرضها، أما هو فلمْ ينسَ.

وهل تنسلُّ الذكريات والصور من قلب الرجل العظيم بعد ما يجاوز الخمسين عامًا بتلك السهولة!

إن الحقيقة الواضحة التي لا تحتمل مراءً ولا تأويلًا، أن الوطن أحب الأماكن إلى قلب الإنسان السويّ.

ولكن أين الوطن؟ وما علامته؟ وكيف نجده؟

إن الإنسان يُفارق وطنه جزءًا جزءًا، كلما تخلى عن حلم فارق جزءًا، كلما دفن قمرًا فارق جزءًا، كلما غيب شمسًا فارق جزءًا، كلما رضي بالقليل وهو بالكثير أجدر فارق جزءًا، كلما استبدل الذي هو أدنى بالذي هو خير، فارق جزءًا.

حتى إذا فقد تلك الأجزاء كلها، اتسعت الهُوَّة بينه وبين ذلك المسخ الذي كان يُسمى قديمًا وطنًا.

فما أظلم المُستضعفين في الأرض لأنفسهم إن لم يهاجروا!

وما أقسى قلوبهم عليهم إن ارتضوا الظلم العاجزين عن رده ولم ينتشروا في أرض الله الواسعة!

وما أقبح استخذاء أصحاب الأحلام العظيمة، إن هم تخلوا عنها متعللين بحكم الظروف والأقدار!

أيها الناس، فتشوا عن الوطن في القلوب قبل الأراضي، فتشوا عنه على أكتاف الأصدقاء، وفي عيون المُحبين. فتشوا عن الوطن فيما يبدو أنه الوطن.

ومن يدرى، فقد تلتقي بوطنك صُدفةً في زهرةٍ أو أغنيةٍ أو كتاب!

أيها الوطن البعيد المُبعدُ بُعد الشمس، أيها الوطنُ القريب المُقرَّب قُرب حبل الوريد:

إنّي ما قطعتُ منك حبائِل الآمالِ.

(مساء الخير يا حلوة)

قبلَ القبلِ، فإني أُحبكِ يا قلبَ القلبِ.
أما بعدُ،
فإنَّ بُعدكِ أرهقني، ومَزَّقني كُلَّ مُمَزَّق، فهلَّا أذنتِ لقلبيْنا أنْ يلتقيا في حُلم أو شارع أو أغنية!
وقد لاحظتْ جارتنا الجميلةُ هذا، فراودتني عن حُبِّي، وكتبتْ فيّ عشرين بيتًا من الشِعر، وأهدتني مقطوعةً موسيقيةً، وزهرةَ زَنْبَق؛ ظنًّا منها أنْ سَيُذْهبَ هذا عَنَّا حَزَنَ فِراقكم.
لِله ما أحمقَها!
هي لا تعلمُ أنَّي رضعت لِبانَ هواكم. فلا أقوى على الفِطام.
وهي لا تعلم أنَّك وَهبتِ لي نهرًا من الشِعر، وبيتًا من الألحان.
هي لا تعلم أنكِ قطفتِ لي الشمس، ووضعتها في جيبي.
وسرقتِ لِي غيمة، وخبأتِها في سريري.
مساء الخير يا حلوة.
يقولون أن الصبَّ تفضحه عيونه، وأنا على ذلك اليومَ من الشاهدين.
وإلاَّ فما ذاك الالتماع في عيني! وما تينك الدموعُ الحَرَّى التي أسفحها، شوقًا، كلما مررت ببيتكم أو بِبيتِ من يراكم!
اليومَ، أشْغَلُنِي عنكِ بكِ، أهربُ منكِ إليكِ، أسلكُ كلَّ طريقٍ لا تسلكينه، فيقودني عند نهايته إليكِ.
أقرأ القصائدَ التي لا تعرفينها، فأجدكِ في آخر الشطر الأخير من كل قصيدة.
تحاصرينني كالاغتراب والخوف والحزن والثورة، في كل شيء أراكِ.

مساء الخير يا حلوة..

تعلمين أني سيئٌ في الوصف ورواية الحكايا، فلا تلوميني إن قضيت يومًا، أحاول وصف ابتسامتك، تورّد خديك، طريقتك في التحية، نظرتك إليَّ حين أخطأ، التموج الذي تتخذه دمعاتك السخينة على خدّيكِ لحظاتِ البكاء.

مخطئ من يظن الزمنَ وعاءً لكل الأحداث، من يظن أن بالإمكان وصف رائحة المطر، أو وصف قُبلة أو لوحةٍ أو زهرة.

أعتقد أننا في هذه اللحظة من اليوم، التي تتفرغين فيها لفيروز وفرشاة مرسمك.

وإن كنت مُصيبًا فيما أذكر - ومتأكد أنّي كذلك - فإنها الآن تغني:

"يا ناطرين التلج ما عاد بدكن ترجعو..

صرخ علهن بالشتي يا ديب

بلكي بيسمعو.

وحدن بيبقو متل هالغيم العتيق

وحدهن وجوهن وعتم الطريق

عم يقطعوا الغابة.

وبإيدهن متل الشتي يدقوا البكي.

وهِنّي على بوابي"

وأعتقد أيضًا أنني - كما أفعل كل مرة - سأطبع قُبلة على جبهتك الطاهرة، وأختم بمختومي الأثير عندك:

لديّ كتابٌ صغير

أكتب فيه حين أنساك

كتاب ذو غلاف أسود

لم أخطُ فيه كلمة بعد

فقط، عديني أن تكوني هنا، في الحلم على الأقل.

(غدُ التغيير)

كل مساء، أخلدُ للنومِ وأنا حزينٌ لأني لم أتغير.
أردد بيني وبيني: غدًا بدايةٌ جديدة، سأخطو خطوة في طريقي إلى الله، سأقتربُ أكثر، سأتكلم قليلًا، وأستمع كثيرًا، سأهمل الناس وأشغلني بنفسي، لن أضيع كثيرًا من الوقت في اللاشيء، سأقول لا.
أنام وأنا أحلم بالتغيير، ثم أصحو قوي الأمل في يومٍ جديد مُفعمٍ بالتغيير.
ينتهي اليوم وأعود إلى سريري، أجرُّني وخيباتي، وقد ابتعدت عن الله خطوةً، وتكلّمتُ حتى انبرى لساني، وعييتُ أن أستمع، وانشغلت بالناس وما يرون، وأضعت فرصةً أو اثنتين، وعددًا لا بأس به من الساعات في اللاشيء، وأغرقت في قول نعم، وقبول ما لا أريد.
أخلد للنوم وأنا حزينٌ لأني لم أتغير. ثم أردد بيني وبيني:
"غدًا بدايةٌ جديدة، سأ....."
غدُ التغيير لا يأتي أبدًا.

سرطان

"إلى والدةِ صديقي (عبدُ الله)، التي تحارب السرطان.. وإلى أولئك المُقاتلين في ممراتِ المستشفياتِ الذين يجابهون المرضَ بالصبرِ والابتسام.

ستنتصرون."

أمي في الأربعين من عمرها، أقطفُ من شجرةِ العمرِ ثلاثين ورقةً. الآن هي بنتُ العاشرة.

طفلةٌ صغيرةٌ في صورةٍ قديمةٍ متآكلةِ الأطراف، في حديقة بيتِ جدي الذي يُطل على البحر.

شعرُها ذهبي، يعطي للشمسِ لونها، لا العكس.. كثيفٌ ومتطايرٌ يغزو وجهَ الصورة، لكنه يتركُ مُتسعًا لوجهها كاملِ الإنارةِ والاستدارة.. تبدو واثقةً ومطمئنة.

أمي دائمًا واثقةٌ ومطمئنةٌ، حتى وهي تكملُ الأربعين من عمرها.

أمي في الأربعين من عمرها، أقطفُ من شجرةِ العمرِ عشرين ورقة. الآن هي بنتُ العشرين.

قصيرةٌ كالعادة، تتعثرُ في نفسها، تخطو خطواتٍ طويلةً لتلائمَ مِشيةَ أبي الوسيمِ دائمًا المبتسمِ دائمًا.

تخطو خطواتٍ بعيدة، تلِدُني ثم تلدُ أختي الصُغرى، تكملُ تعليمها الجامعيَّ وتكملُ الأربعين من عمرها.

أمي في الأربعين من عمرها، أقطفُ من شجرةِ العمرِ خمسَ ورقات، الآن هي بنتُ البيتِ والحياة.

توقظني للفجر، وتمشِّطُ شعرَ أختي وساحةَ البيت.. تطبعُ كل صباحٍ على جبين أبي دعاءً أثيرًا: يصونكَ اللهُ يا نورَ العين.

المطرُ يتساقطُ بعنفٍ في الخارج، تسقطُ شبكاتُ الجوالِ والإنترنت، حتى أعمدةُ الإنارةِ لمْ تثْبُت في وجهِ رياحِ تلك الليلة.
لكنَّ شيئًا لا يشبهُ أبدًا سقوطَ أمي على بابِ البيتِ، تلك الليلة.
سقطتْ، قبل أنْ تكملَ الأربعين من عمرها.
أمي في الأربعين من عمرها، شجرةُ العمر تساقطتْ أوراقها تحت تأثير الكيماوي، بقيتْ الأغصان.
أكسِرُ من الشجرةِ غُصنًا، وأجلسُ تحت قدمي أمي.
نشاهدُ صورةً لها صغيرةً في حديقةِ جدي، وصورةً لحفلِ زفافِها لأبي، وصورةً لأسرتنا الصغيرة، وصورةً لها تمشّط شعرَ أختي وساحةَ البيت، وصورةً وهي تكملُ الأربعين من عمرها.
مع كل صورة، كانت تسقطُ شعْرَة، تُزيحها أمي بسرعةٍ، وتقول: لابد أنَّ الريح حملَتْها إلى هنا، الريحُ شديدة بالخارج.
تقولُ ذلك وتضحكُ، تقول ذلك وأبكي.
النوافذُ مغلقة، والريح لمْ تزرنا منذ أنْ سقطتْ، قاتلَ اللهُ المرض!
بجسدٍ أنهكهُ المرض، وعينينِ غارتا في مِحجَريهما، واثقةٌ ومطمئنةٌ تقاتلُ السرطان، وتقول وهي تكمل الأربعين من عمرها: حتمًا سننتصر.

(أبناءُ البكاء)

يحدث ذلك دائمًا، أنْ نبكي.. يحدث كلَ يومٍ تقريبًا أو كلَ لحظةٍ ربما.
يحدثُ أنْ نبكي لأغنيةٍ عابرة، تنفض الغبار القديم عن صناديقِ الذاكرة التي اجتهدْنا زمانًا في إحكامِ غلْقِها.
لحنٌ واحدٌ فقط، يفُضُّ بِكارة الذاكرة، ويُجري دمعَ العين على بيتِ العائلة القديم، والصديقِ المُهاجِر، والقلبِ المُنْشطِر، ورصاصةِ الغدر في جسدِ الثورة الغضّ.
يحدثُ أنْ نبكي؛ لأنَ أحدهم غادرَ ولمْ ينظفْ فَوْضَاه، فتركَ في القلبِ أُغنياته المفضلةِ، وساعةَ الغروب، والأشعارَ الرخيصة.
يحدثُ أنْ يبكي الأبُ والزوجُ، الأمُ والزوجةُ.
لكنَّ بُكاء الأبِ والأمِ لا يشبهُ بكاءَ الزوجِ والزوجةِ، وبكاءُ الأبِ العاجزِ لا يشبهُ شيء.
يحدثُ أنْ نبكي؛ لأنَ الوطنَ صار ضيقًا كقبضةِ يدٍ، ثقيلًا كمطرقةِ حدادٍ، باردًا كثلاجةِ الموتى.
يحدثُ أنْ نبكي؛ لأنَّنا مُفخَخُون بالحبِ والشوقِ، ممتلئون بالوحدةِ والخوفِ، كامتلاءِ دُميةٍ بالقشّ أو حقلٍ بالسنابل.
يحدثُ أنْ نبكي؛ لأن الحنين مؤلمٌ، ينهشُ القلبَ والروح.
حنينٌ للطفولةِ المشاغبةِ والنومِ المبكرِ والسهرِ الاختياريّ.
حنينٌ لصباحِ الخيرِ وشاي الصباحِ الذي يُحتسى على مَهل.
حنينٌ لساعةِ السحور، وزينةِ الشوارع وليلةِ العيدِ وكل عيد، والجُنيه الذي يشتري حلوى العالم.
حنينٌ لخفقةِ القلبِ الأولى، والنجاحِ السهل، وساعاتِ الانتظار على طريقِ الحُب.

يحدثُ أنْ نبكي: لأنَ مَنْ نُحبهم بخير، يُسلِّمون علينا من صور الحائط وشواهدِ القبور.
يحدثُ أنْ نبكي: لأنَ المِرآة كشفتْ ضعفنا، وأعادتْ لنا وجهًا غريبًا لا يُشبهُنا.
يحدثُ، ويحدثُ كلَ يومٍ، أنْ تُبكينا أشياءٌ صغيرةٌ تافهة؛ لأنَ أشياءَ أكبرَ قدْ تراكمت قبلها.
نحنُ أبناءُ البكاءِ والزمن، الوَرَثةُ الشرعِيُّون لعينِ الدمعِ وحُمَّى الحنينِ وسهرِ الليالي.
صغارًا كنَّا نبكي ضيقَ الحذاءِ، اليومَ نبكي طولَ الطريق.
كُنَّا نبكي ضعفَ الظَهرِ، اليومَ نبكي ثِقلَ الحِمل.
كُنَّا نبكي من النسيان، اليومَ نبكي من الذاكرة.
نحنُ أبناءُ البكاءِ والزمن، الوَرَثةُ الشرعِيُّون لعينِ الدمعِ، وحُمَّى الحنينِ وسهرِ الليالي.
في الشارعِ نبكي، في الحديقةِ أيضًا نبكي، بين أحضانِ الحياةِ نبكي، وعلى فِراشِ الموتِ نبكي.
مع الأغنيةِ نبكي، وبين أسطرِ الروايةِ نبكي، في صالاتِ المطاراتِ نبكي، وفي ردهاتِ الطائراتِ نبكي.
في الوطنِ السعيدِ نبكي، وفي البُعدِ الشريدِ نبكي.
حتى أحلامُنا الشاسعةُ، لمْ نستطعْ انتزاعَ البكاءِ منها.
كان لي ذلك الصديقُ الذي يبدو دائمًا وكأنَّه سيبكي.. إذا ابتسمَ؛ تلألأتْ عيناهُ واستعبَرْ، وإذا بكى غرِقَ في دُموعهِ.. كان يُردد: "نحنُ أبناءُ البكاءِ والزمن، الوَرَثةُ الشرعِيُّون لعينِ الدمعِ، وحُمَّى الحنينِ وسهرِ الليالي.
نحنُ أغنياءٌ؛ لأننا نملكُ رفاهيةَ البُكاء.

(مساءُ الخير يا حلوة)

الشتاءُ يلوحُ في الأفقِ من بعيد، يتَرَاءى لي كشيخٍ هرِمٍ، يتوكأُ على عصا هي غيمُ السماء الحزين.

وليلُ الشتاءِ طويلٌ كئيبٌ كليلِ المسافرِ الغريبِ، والمطرُ على أبوابِ السماءِ يوشكُ أنْ ينهمرَ، لكنَّه يطلبُ الإذنَ.. لا تأذني له؛ فأنا أخافُ أنْ تمطرَ الدنيا ولستِ معي.

مساءُ الخيرِ يا حلوة.

أنبئِيني كيف يُولدُ الحنين؟ ومن أينَ يأتي؟ وما مادّتُه؟ ما دورةُ حياته؟ وكيف يسكنُ؟ ما بدايته؟ ما مُنتهاه؟ هل ينتقل انتقالًا حرًّا في الفضاء؟ أم تلفحه الشمس ويُذيبُه المطر؟

هل هو مرضٌ؟ مرضٌ موسميٌ يأتي مع الشتاء ويرحلُ معه؟ أم أنه عرَضٌ لِمَرَض.. مرضِ الحُب؟

هل الحُبُّ مرض؟ إنْ كانَ كذلكَ؛ فلِم لا نسألُ لأنفسِنا الشفاء؟ وإنْ لم يكنْ، فعلامَ خوفنا منه وارتيابنا فيه؟

قلتِ لي يومًا: الحبُّ لا يُعرَّف، وإنْ عُرِّف غابْ، وإنْ غابَ جُهِلْ، وإنْ جُهِل رَكَد، وإنْ ركَد فسد، وفسادُ الحُبِّ موتٌ، وموتُ الحُبِّ مَهلَكة.

مساءُ الخيرِ يا حلوة.

مررتُ على دارٍ تبيع الأحلامَ في الطريق، فعزَمتُ أن أشتريَ لكِ حُلمًا هانئًا جميلًا، يكونُ لكِ من الليلِ ليلًا بديلًا.. ولكنْ شيئًا عجيبًا حدث.

على الأرففِ نبتتْ للأحلامِ أعينٌ صغيرةٌ وألسنٌ مُتوَسِّلةٌ، صار كلُ حلمٍ أمرُّ به يرجوني أن أختارَه: "اجعلْني حُلمها.. أتوسلُ إليك.. أرجوك".

اخترتُ حُلمًا في الزاوية البعيدة، كان هادئًا مُتَبَتِّلًا، رأيتُ في عينيه عطفَكِ ورِقّتكِ، وعلى جبينِه طالعُ السعدِ وإشراقةُ المُحيَّا، خِفتُ عليه منهم كخوفكِ عليَّ من الأرض التي يسير عليها النساء، كخوفكِ عليَّ من كل الأرض. خبأته وخرجت.

في الحُلم، كنتِ بائعةَ وردٍ، وكنتُ شاعرًا، أهديتني ابتسامةً ووردة، وقلتِ: هاتِ يدك.

مددتُ يدي، فدخلنا في حُلم آخر كنتُ فيه رسّامًا وكنتِ فيه حُورية، رسمتُ الثغرَ والشَعرَ، فقلتِ: أبصر عينيّ.

أبصرتُ عينيكِ؛ فرأيتُ فيهما حُلمًا جديدًا، كنتِ أنتِ القمر، وكنتُ أنا منشدُ الليل الحزين، انحنيتِ على قلبي تُهَدْهِدِيْنَهُ، وأعطيتني قلمًا ودواةً، ثم قلتِ: اكتبْ لي.

كتبتُ لكِ:

مساءُ الخير يا حلوة..

(حوار مع صديقي الفضائي)

وصلتني هذا الصباح رسالةٌ من صديقٍ فضائي، يسألُ فيها عنّي وعن عاداتي وأحوالي.

وإن كنتَ لا تعرفني أنتَ أيضًا أيها القارئُ الكريم؛ فبإمكانكَ أنْ تجدَ في تلك الكلماتِ كشفًا لبعضِ الغموض وإزاحةً لبعضِ الأستارِ والحُجُب.

أنا - وكلُ شخصٍ في الجزءِ الذي أعيشُ فيه من الكوكبِ - مولعٌ بالتنظيم، مُغرمٌ به: تنظيمِ الوقت، تنظيمِ الكتب، تنظيمِ الحفلات، تنظيمِ النسل، تنظيمِ القاعدة..

أعني كلَّ ما يتعلقُ بالتنظيمِ من قريبٍ أو بعيدٍ أو خاصٍّ أو عامٍّ، بل إننا ننشغلُ بالتنظيمِ أحيانًا عن العملِ المنوطِ بنا إنجازهُ؛ فتُرَانا نُنظم في أوقاتِ العمل، وفي أوقاتِ الراحة، وفي أوقاتِ النوم، وفي المحاضراتِ، وفي أوقات الاستحمامِ والاستجمامِ، ننظم ونحنُ نَشُقُّ الصفَ متجاهلِين نداءاتِ المُنتظِمين فيه، وننظم ونحنُ نمارسُ عادةَ التأخرِ عن العملِ والمواعيد؛ لأننا منشغلون بالتنظيم.

باللهِ عليك أيُّها الفضائي - هذا إنْ كنتَ مؤمنًا باللهِ - هل رأيتَ حشدًا من الناس يُقدسون التنظيمَ بهذا القدر؟!

إنها سُبَّةٌ في بلادي، أن يُوصَم الشخص بأنه غير منظم.

يُؤتَى بالرجلِ غيرِ المنظم، في مكانٍ غيرِ منظم، ويَجيءُ رجالٌ منظمون ونساءٌ منظمات وأطفالٌ يرضعونَ النظام، ثم ينهالونَ عليه بالسبِّ والتقريعِ وسيولٍ من النعوتِ الجارحةِ التي تنفذُ إلى صميمِ قلبه، فما هي إلا ساعةٌ وسبعٌ وخمسون دقيقة - انظرْ كيف نهتمُ بنظامِ الوقت أيها الفضائي!- حتى يتلوَّى الشخصُ غيرُ المنظمِ على نفسه، وتنفجرَ بطنه وتخرجَ أمعاؤهُ؛ فنقوم بفَرْدِها ونصنع منها المُمْبار.

ثم ينكسرُ قفصهُ الصدريّ، وتتمزقُ أضلاعه، ويفرُّ قلبه بعيدًا، بحثًا عن جسدٍ منظمٍ آخر أو ما شابه ذلك.

في بلدي أيها الفضائي، لا نتحدثُ عن النظامِ أبدًا ولا نذكرُه بسوءٍ؛ لأن عواقبَ ذلك وخيمةٌ، لا يعرفها إلا الله، - وأنا الآن أدعوكَ للإسلامِ أيها الفضائي، أسلمْ تسلمْ - فلذلك ترى الكلَّ ملتزمًا بالنظامِ وإن لم يُفصح.

نحنُ هنا أيضًا نقدّسُ المُثل العليا، وحقوقَ الحيوانِ والنباتِ والجماد، أواه! كدتُ أنسى، وحقوقَ الإنسان أيضًا.

وهذا الإنسانُ هو أنا، وأنت - هل أنت إنسانٌ أيها الفضائي؟ - وجميعُنا.

كلنا هنا متساوون في الحقوقِ والواجباتِ، سواسيةٌ كأسنانِ المشطِ.

نحبُّ الحبَ، ونكرمُ الكرامةَ، ونُحررُ الحريةَ.

والحبُ والحريةُ والكرامةُ ثالوثٌ مقدسٌ للإنسانِ أيها الفضائي، بدونِها تنسحقُ رئتاهُ وتتصلبُ شرايينهُ ويتجلطُ الدمُ في عروقهِ، وتذهبُ روحه -والروحُ من أمرِ ربي لو تعلم- في رحلةِ سفرٍ طويلةٍ للسمواتِ العُلا، بلا رجعةٍ.

هل تؤمنُ بالحريةِ أيها الفضائي؟!

والحبِ؟ هل تهمسُ في أذنِ حبيبتك الفضائية كلَّ صباحٍ أو مساءٍ أو كل سنةٍ ضوئيةٍ حتى أنكَ تحبها؟!

هل لكَ أذنٌ أصلًا أيها الفضائي؟!

لا أقصدُ أن أكون متنمرًا أو عُنصريًا - رُغم أنني كذلك في الواقعِ -، لكنني لا أحملُ في ذهني ولا في خزانةِ مَلابسي تصورًا مُناسبًا عن هيئتكَ أيها الفضائي، كيف تأكلُ أو كيف تسمعُ أو كيف تتكلمُ أو كيف تكتب.

ولولا أنَّ الله فضَّلني عنْ كثيرٍ مِمَّن خلقَ تفضيلًا، وفهَّمني لغةَ الفضائيينَ لَمَا فهمتُ سطرًا واحدًا من رسالتكِ تلكَ التي تبدو أقربَ إلى حروفٍ كُتبتْ بحوافرِ بقرة.

عذرًا لك يا صديقي وللبقرةِ، أُقسم أنني لا أحملُ مشاعرَ بُغضٍ أو كراهيةٍ لأيٍّ منكما، بلْ إنَّني بالأمسِ استخرتُ اللهَ واستشرتُ صديقيَّ بشأنِ إنشاءِ جمعيةٍ عالميةٍ للدفاعِ عن قضايا الفضائيين والبقرِ والمرأةِ.

لكنَّني - ككلِ الأشخاصِ في المكانِ الذي أكتبُ لكَ منه الآن - نحبُ الدقةَ المجرَّدة، ونحبُ تحرّي الدقةِ، ونحبُ من يحبُ تحرّي الدقةِ، هذا يمثلُ جزءًا كبيرًا من هُويتنا وثقافتنا.

جرّب مثلًا أن تكونَ غريبًا - والغريبُ أعمى -، ثم تصادف أحدهم في الشارع، وتسأل: عذرًا أخي البشريَّ، لقد أوقفتُ مكُّوكي الفضائي على أول المجرة، تحديدًا في موقفِ دربِ التبانةِ العمومِي، ثم أخذتُ جولةً في نزلةِ السمَّان، كيف يمكنني أنْ أعود؟!

حتمًا ستصلُ إلى مكّوكِكَ، ربما تبتلعكَ بعضُ الثقوبِ السوداءِ، أو ترتطمُ بمذنَّباتٍ وبالوعاتٍ وأحزمةٍ فضائيةٍ ومطباتٍ صناعيةٍ ونيازك، لكنك ستصلُ، على الأقل قبل أنْ تموت.

دقةٌ في كلِ شيء، عند الطبيبِ إذا سأل عمَّا يؤلمنا، عند سائق الأتوبيس إذا أردنا النزول، عند موظف المصلحة الحكومية - هل تحتاج إلى تصريحٍ لتجتاز الأتموسفير أيها الفضائي؟ ستعني إجابتك الشيء الكثير لي - إذا أردنا استخراج تصريح دفن.

دقةٌ حتى في الكُشري.

وأنا أدعوكَ من موقعي هذا، إلى عشاءٍ كُشريٍّ، أولهُ عندك وآخره عندي، وأقسم بالله لن تدفع مليمًا.

والمليمُ عملةٌ قد اندثرتْ منذ سنينَ طويلةٍ؛ لكنها تُستخدمُ للتقليلِ حينًا وللتحقير أحيانًا.

لا أريدُ أنْ أُطيلَ عليكَ، ولا على نفسي؛ فأنا وقومي عُمّالٌ مشغولون، لا نحبُ الكلامَ الكثيرَ في غيرِ فائدةٍ، نميلُ إلى الإيجازِ ولا نسهبُ إلا على مَضضٍ.

وأرجو أنْ تعذرَ تبعثُرَ أفكاري وتكَبْكُبَها، فأنا منشغلٌ الآن بتنظيمِ ما لابُدَّ من تنظيمهِ.

فكرتُ أن أكتب لكَ البارحة ولكنَّني كنتُ مُنهمِكًا في تنظيمِ مسألةٍ في غايةِ الدقةِ، ثُمَّ قررتُ أنْ أُعيدَ كتابةَ تلك الرسالةِ بشكلٍ أكثرَ تنميقًا غدًا أو بعدَ غدٍ؛ لكنني اكتشفتُ أنّي مشغولٌ، مشغولٌ جدًا..

ربما مشغولٌ لدرجةٍ تدفعني لأن أنهى الرسالةَ الآن دونَ أنْ أقولَ ودا....

(ثاني أيّـام العيـد)

ثاني أيام العيد هو يوم غريب حقًا: فالعيد بتكبيراتِه وصلاتِه وأُضحياتِه وزياراتِه ومهاتفاتِ التهاني والمباركةِ قد انتهى لتوّه.

مما يعني أنَّ عليَّ انتظارَ سنةٍ كاملةٍ حتى تدور الأرض دورتها ويعود العيد من جديد.

بالأمس كان هاتفي لا يكفُ عن الاهتزاز من فَرطِ المكالمات التي تطمئنُ على صحتي وأحوالي، ومن فرطِ الرسائل التي أحبَ أصحابها أن يكونوا أولَ من يتمنى لي عيدًا جديدًا سعيدًا أنا وأسرتي الكريمة.

بالأمس أيضًا كانت الشوارع تعجُّ بالمُضحِّينَ الحاملينَ سِلالَ لحومِ الأضاحي، والأطفالِ الحاملينَ مسدساتِ الصوتِ والخَرز، والشبابِ الحاملينَ ما تبقى من صلةِ الرحمِ المُهتَّكةِ كثوبٍ بالٍ، المفتولةِ كحبلٍ طوال العام يقصدون بيتَ العائلة، يريدون وصل ما انقطع.

كان مشهدًا كاملًا متكاملًا يليقُ بيومِ عيدٍ يزورنا كل سنةٍ مرة.

لكنَّ هاتفي اليوم يتيمٌ يئِنُّ ولا يرن، وخوارُ البقرِ وثغاءُ الشِياهِ عند جيراننا قد اختفى، وقامَ مُقامهُ الدمُ والعظام.

أصبحَ العيدُ – اليومَ - طيفًا، وصوتُ التكبيرات صدى صوتٍ غابَ في بئرٍ عميق، والمضحُّون وسِلالهم والأطفالُ ومسدساتهم والشبابُ ورحِمُهم الموصولة، خيالاتٍ وشيئًا من الماضي.

يُذكرني ذلك بيومِ نجاحي في الثانوية العامة بنسبةٍ تجاوزت الـ٩٩% حينها، واليومِ الذي تلاه مباشرةً.

كان عيدًا بالنسبةِ لي، لم يكفُ هاتفي وهاتفُ أبوّي عن الاهتزازِ والرنينِ المتواصل ليومٍ كامل.. ولم يخلُ البيتُ من الأهلِ والزوارِ والجيران.. أمي

تدعوني لمكالمةِ زميلتها فلانة، وأبي يستعجلني لأردَ على صديقهِ الأستاذ فلان الذي اتصل من فنزويلا.
عمي يُقبّلني وخالتي تحتضِنُني.. أحدهم يتركُ يدي وآخر يمسكها، والكلُ يتفنن في إظهار الابتهاجِ بألفِ طريقةٍ وطريقة.
أقسمُ لك - عزيزي القارئ - أنهم في صباحِ اليوم التالي، لم يجعلوا لي نصيبًا من أكوابِ الشاي بعد الإفطار.
لا تستغربْ، فالأمور تأخذ هذا المنحى دائمًا.
لذلك أقولُ إن اليوم التالي للعيد هو يومٌ كارثي.. وقِس على ذلك اليوم التالي لنجاحك في الثانوية العامة، واليوم التالي لدخولك الجامعة، واليوم التالي لإسقاط النظام، واليوم التالي لمقابلةِ فتاةٍ جميلة...إلخ.
ولذلك أيضًا ترعبني فكرة الزواج، أو بتعبيرٍ أكثر دِقةٍ: يرعبني اليوم التالي للزواج.
حيث أستيقظ مفزوعًا وقد انتهى حفل الزفاف للأبد، ونُزع مني لقبُ (العريس) إلى غير رجعة، وعاد الناس لبيوتهم، واستقرَّت بدلةُ الزفافِ والفستانُ الأبيض في قاعِ خِزانة الملابس، وأتساءل: أين أنا؟ ومن هذه المرأة التي تنام على سريري؟ وكيف أتت إلى هنا؟! ولماذا لم أذهب للعمل رغم أن اليوم ليس عطلةً رسمية؟!
ثم أتذكر أني كنت البارحة عريسًا، وأن التي بجواري هي زوجتي، فأعود للنوم من جديد وأنا أتمتم: ما الذي فعلته بنفسي بحق الجحيم!

(خطيبُ حيِّنا)

يقعُ أقربُ مسجدٍ من بيتنا على مَبْعدةِ عَشْرةِ أمتارٍ.. مسجدٌ أبيضٌ صغيرٌ له مِئْذنةٌ أقل ارتفاعًا من جميع البيوتِ المجاورةِ.

وخطيبُ المسجدِ رجلٌ لطيفٌ، مُمْتلئ إلا قليلًا، إمامُ أوقافٍ، يمْتهنُ الخطابةَ والوعظَ، ويشهدُ اللهُ أنَّه لم يكن يُجيدُ أيًّا منهما.

كانَ لِهذا الشيخِ نظامٌ لا يَحِيدُ عنه، وترتيبٌ لا يُخْطِؤُه.. تدورُ خُطَبُهُ في فَلَكَيْن اثنين، لا تُفلِتُ مِن مداراتها.. ولذا فإني لا أبالغُ إنْ قلتُ أني حفِظتُ خُطبَ الشيخِ حفظًا يكادُ يبلغُ حدَّ الاستظهار، كيفَ لا، وقد قضيتُ أعوامًا خمسة، أي ما يُقاربُ المائتين وستين خطبة، وأنا أستمعُ لِخُطَبِه لم أضيّع منها إلا عشرةً على أقصى تقدير.

وقد كان - سامحه الله - رجلًا فلاحًا، جُلُّ وقته مُكرَّسٌ للحقلِ والدَوابّ؛ فلم يكنْ يفرغُ لتجهيزِ خطبته إلا قبلَ الصلاةِ ببضعِ ساعاتٍ، مما قَوَّى بداخلي اعتقادًا أنه يُجهّز خطبته بطريقة "الفلاش باك".

يطلع علينا العام الهجري الجديد، فيخصص خطيبنا ثلاث خطب تتحدث عن هجرة الرسول - صلى الله عليه وسلم - يتبعها بفضل شهر الله المحرم ويوم عاشوراء، وكيف أن الله نجا نبيه موسى من بني إسرائيل، يتخلل ذلك خطبة أو اثنتين عن "الحلال والحرام"، ثم يعود سيرته الأولى في حديث متصل عن الأيام التي فضلها الله.

فتجد أن شهر ربيع الأول مكرسٌ للحديث عن ذكرى ميلاد الكريم - صلى الله عليه وسلم -. الخطبة هي هي والحديث هو هو، لكنه في الخطبة الأولى يقول "ونحن نقبل على ذكرى ميلاد النبي ما أحوجنا جميعا إلى التحلي بصفاته الكريمة".

ثم يعود في الثانية فيقول "ونحن نعيش في ذكرى ميلاد النبي، ما أحوجنا جميعا إلى....." ثم تأتي الثالثة، تتحفز لخطبة جديدة تكسر رتابة الأحاديث التاريخية المرتبطة بالأيام، لكنه بعد أن يحمد الله ويثني عليه يفاجئك بقوله:" ودعنا منذ أيام ذكرى ميلاد النبي، فما أحوجنا جميعًا إلى..."!!

وهكذا، لم يعد التكهن بعنوان خطبة الجمعة وموضوعها، يشغل أدنى حيز من تفكيري، فبحركة صغيرة من أحد أصابعي أقلب ورقة التقويم، فأعرف أن اليوم يوافق الجمعة الأولى من أبريل، وأعرف أن شيخنا سيتحدث عن يوم اليتيم ويعيد الخطبة ذاتها، بنفس الحديث الضعيف الذي يردده، وبنفس اللعثمة.

أصحو ذات يوم مبارك فأكتشف أن شهر "رمضان" على الأبواب، فأجهز نفسي لوجبة دسمة من الخطب العتيقة طوال الشهر كله، من قبيل ما كان يحدث في ذكرى ميلاد النبي، ويأتي العيد، فتتنبه – ضمنيا - أن هناك خطبتين من العيار الثقيل عن "فضل صيام ستة أيام من شوال" في طريقهم إليك، فلا مفر منهم ولا مناص.

والحق أقول، أن الشيخ وخطبه قد اجتذبوني اجتذابًا، ليس لجودتهم -لا سمح الله- أو لكاريزما الشيخ وحضوره المبهج.

فقد كان جهوري الصوت عالِيه، يغمض عينيه طوال الخطبة، فلا يفتحهما إلا حين يفرغ أو حين يخطب عن الحلال والحرام.. وقتها كان يعدد كل آيات الكتاب وكل الأحاديث الشريفة التي تتوعد الظالمين وآكلي الحرام والسحت.

يكثر من كلامه ويستزيد، وهو في هذا كله لا يوجه كلامه إلا لرجل مستند على جدار المسجد الخلفي، لا تتحول عيناه عنه طول الخطبة.. علمت بعدها أن هذا الرجل أغاظ شيخنا واختلس من ماله عن طريق "الفهلوة".

فتح الله على شيخنا في المال وأنعم عليه بأطيان ووظيفة وعيش رغيد، إلا أن الله لم يجعل له من متطلبات مهنته حظًا ولا نصيبًا.

كان أجهل أهل الأرض باللغة العربية، وأكثرهم لحنًا في كتاب الله، وقد كان هذا سببًا كافيًا لإقامة حجاب سميك بين النوم وعيني، أثناء خطبه.

يبدأ بحمد الله والثناء عليه، ثم يندفع في عنف يضرب بقواعد اللغة عرض الحائط: فينصب الفاعل ويجره في آن، ويأتي على المفعول فلا يعفيه من الجرّ، يعطف ثلاث كلمات على بعضهم، فينصب الأولى ويرفع الثانية ويجزم الثالثة، وهو في هذا كله متمسك بنصب المؤنث السالم المجموع بالفتحة، قال في ذلك مرة: "لم يركبُ الصحابةُ السياراتَ الشيفورليهاتَ" أي والله!!

وقد كان حفظه للشعر واستشهاده به شيئا نشازا مُنكرًا.. وويل ثم ويل ثم ويل، لمن أحب اللغة يومًا، وحملته الأقدار إلى مسجدنا هذا ليجلس إلى شيخنا هذا، فيرى تسفيحه للغة واغتصابه لها، فيحس أن خطبة الجمعة قد استحالت من لقاء أسبوعي متجدد، يعدل للناس ما اعوج من أمر دينهم ودنياهم، إلى وسيلةً من وسائل التعذيب النفسي.

وليس من الإنصاف في شيء، أن نطلق تلك الأحكام على كل الخطباء ونمضي - في جَورٍ - نقاتل لإثبات افتراضٍ كهذا.

وإني ممن يحسنون الظن في قُرائهم، ولا أظنهم إلا منتهين عن الوقوع في فخ التعميم.

بالأمسِ البعيدِ الْتقينا

بالأمسِ البعيدِ الْتقينا، صدفةً تحت المطر.
الأمرُ أشبهُ باستنباتِ شجرةٍ أو ميلادِ فكرةٍ أو إشعالِ ثورة.
ومع الوقت، كنتِ كالشجرة والفكرة والثورة، تكبرين بداخلي، وتملأين عقلي وبالطبعِ.. قلبي.
حاولتُ أن أصادق أصدقاءك، أن أتودد إليهم، أن أتحرى الأوقات التي تكونون فيها سويًا، ثم أتحين لحظة اجتماعكم وأهاتفهم: فقد يتصادف أن تطلبي من نادل المقهى في تلك اللحظة تحديدًا كوبًا من الماء البارد، فيبلل صوتكِ ظمأ قلبي العطشان.
كنتُ أمرُّ بشارعكم وإنْ كلفني ذلك التأخرَ لساعةٍ كاملةٍ عن العمل، واستهلاك لترٍ إضافيٍ من البنزين، كنت أفعل ذلك حتى وإنْ كلفني عتابًا متكررًا من رئيسي في العمل.
كنت أشتري من البائع الطماعِ جدًا على رأس شارعكم، الذي يضاعف عليَّ -أنا الغريب عن الحي- ثمن السجائر وأعواد الثقاب، ثم يقول في خبثٍ: "ضريبةُ الحُب".
لم أكن أبدًا من النوع المُهتم بمواقع التواصل الاجتماعي، لكنكِ كنتِ؛ فصرتُ.
كنت أحفظُ الطريق إلى صفحتك الشخصية على (الفيسبوك)، وأحفظُ ما تكتبين.
في السابعة والأربعين دقيقة مساءَ الأحدِ الماضي، كتبتِ: "بيني وبين السماء شباك، أريد أن احطمه."
في الثانية بعد منتصف الليل البارحة، أعدتِ نشرَ جملةٍ كنتِ قد كتبتها قبل سنة، تقول: "هذه الغرفه ضيقه جدا لا تتسع لقلبى".

في الحقيقة أنت سيئةٌ جدًا في اللغة العربية، بالكاد تلصقين الحرف بالحرف والكلمة بالكلمة والجملة بالجملة؛ لكنك رغم ذلك تكتبينني، وتكتبين أحلامي، أنا الفتي الساذج العادي جدًا المهووس باللغة والحرف والتشكيل.

أتابع إنجازاتك المتتالية في شغف، كأنني من أنجزها، أسمع عن ترقيك في الوظيفة؛ فأشرب نخبَ انتصاركِ وحدي.

أقرأ عن رغبتك الجامحة في السفر إلى باريس، فأقرأ تاريخها وأحفظ شوارعها وأحلمُ أنني أتسلل ليلةَ سفركِ إلى حقيبةٍ من حقائبكِ؛ فتحملنا الطائرة معًا، وتحطنا أمام مُتحف اللوفر أو برج إيفيل أو أي مكانٍ آخر، لا يهم.

المهم أن أكون معكِ ولو في خيالي.

أرى عشقك الأبدي لروايات (بول أوستر)، ورواية (كيف تقتل طائرًا مغردًا) وأشعارِ (بوكوفسكي)؛ فأقرؤها كلها، وأحتفظ بنسخها الأصلية والمترجمة؛ لعل يومًا ما حين نلتقي على غير صدفةٍ في موعدٍ مُرتّب، أهديكِ واحدًا منها فتتفاجئين وتضحكين ويرقص قلبي.

يأسرني تعلقك الغريب بالسينما، بل إنه ما زادني تعلقًا بها وبكِ.

لو أن لنا سينما خاصة! نركض فيها مدى العمرِ سويًا مع (فورست غامب)، ونبكي على حياةِ (جون كوفي)، نتفق على كره (تيتانك)، وننفق الليالي نتناقش في هشاشة العلاقات والعالم والبشر، ثم نخلص إلى أن (ليون المحترف) هو أطيبُ قلبٍ سينمائي، ثم نضحك طويلًا مع (الرجل الوحيد) و(النمر الوردي)، ونستعجب من قدرة العجوز (ستيف مارتن) على إغراقنا في دموع الضحك بالقدر نفسه، رغم ما يقارب العشرين سنةً بين الفيلمين.

قبل أعوامٍ لم أعد أحصيها، كانت حياتي عادية جدًا وخالية من كل شيء، حتى كان الأمس البعيد، حين التقينا صدفةً تحت المطر.

ألا يكفيكِ ذلك كله، كي تقولي لي: صباح الخير؟

نص يبحث عن عنوان

أنا لا أعرفُ عددَ دولِ العالم، ولا متى تفكَّكَ الاتحاد السوفيتي، ولا عددَ قَتلى الحروبِ العالميةِ، ولا عددَ المضائقِ المائيةِ حولَ قارةِ إفريقيا، ولكنَّني أستطيعُ أنْ أقولَ "أُحبك" بخمسِ لغاتٍ مختلفة..

أنا لا أعدُّ الأيامَ ولا الليالي ولا السنين، ولكنَّني أُجيدُ الاندهاش..

أنا لا أُحصى عددَ الرواياتِ التي قرأتُها، ولكنَّني قرأتُ الروايةَ المفضلةَ لفتاةٍ جميلةٍ تخلدُ إلى نومِها مع الغروبِ سبعَ مرات..

أنا لا أحفظُ تاريخَ ميلادِ صديقي المُقرَّب، ولكنَّني أعرفُ أنَّه يَحتسي قهوةَ الصباحِ وهو نائم..

أنا لا أعرفُ عددَ شهداءِ الثوراتِ، ولا عددَ قتلى المذابحِ، ولا ضحايا المحرقةِ؛ ولكنَّني أحفظُ وُجوههم..

أنا لا أعرفُ عددَ أنواعِ الفواكهِ التي تُثمرُ في الحديقةِ، ولكنَّني أجيدُ تقشيرَ البُرتقال..

أنا لا أعرفُ عددَ الكيلومترات التي ينبغي عليَّ قَطعُها؛ لأسافرَ من النهرِ إلى المحيطِ، ولكنَّني أعرفُ الكثير عن الابتسامة..

أنا لا أعرفُ عدد الفتَياتِ اللواتي أُعجبتُ بِهِنَّ، ولكنَّني أذكرُ أنَّه في يومٍ واحدٍ أعجبتُ بفتاةٍ ترتدي زيًّا مدرسيًّا بنَفسجيَّ اللونِ، وبعدها بِعشْرِ دقائقَ أُعجبتُ بسائحةٍ أجنبيَّةٍ مرَّت بجانبي..

أنا لا أذكرُ عددَ المراتِ التي كنتُ فيها مُخطئًا، ولكنَّني أذكرُ اعتذاريَ لبابِ بيتنا الذي صفَقْتُهُ خَلفي بِشِدَّة؛ خوفًا مِن أنْ يفوتني الحبُ والقطار..

أنا لا أعرفُ عدد الدولارات التي يجبُ أنْ تتوافرَ لدي لأشتريَ سيارةً جديدةً ومنزلًا جميلًا؛ ولكنني أعرفُ أنَّ القمرَ يتوسَّطُ السماءَ كلَّ ليلةٍ في الثامنةِ والنصف..

أنا لا أعرفُ عددَ صفحاتِ القرآن الكريم ولا عددَ آياته، ولكنني أستطيع أن أفتح المصحف وأقرأَ فيهِ حتى أصلَ إلى الله..

ما أريدُ أنْ أقولَه هو أنني سيئٌ فيمَا يتعلقُ بالأرقامِ والتواريخِ المهمة، ولكنني جيدٌ - إلى حدٍ ما- في تذكُّرِ ما يجعلُ الأرقامَ والتواريخَ مهمة..

مساء جميل

أحد المساءات سيكون مثاليًا للغاية، جيدًا كفاية للوقوع في الحب ومواساة الأصدقاء والاستماع لصخب الشوارع في استمتاع بلا تأفف.
أحد المساءات سيكون رائعًا لحدٍ بعيد، لن يفكر فيه أحد في الانتحار أو السفر، ولن تعوي الكلاب خلف الأسوار، لن تكون هنالك أسوارٌ أيضًا، ولن يداهمنا الصباح حتى ننهي أحاديثنا المؤجلة.
أحد المساءات سيكون مرتبًا بدقة، على عكس كلامي هذا.
ليس هذا المساء، ولم يكن البارحة وربما لن يكون غدًا.. لكن أحد المساءات سيكون جميلًا.

(جمهورية التليفزيون)

كان لوالدي في السفر صديقٌ من صعيدِ مصر، كثير الامتعاض والتندر على تلك الصورة السخيفة التي يقدمهم بها التلفاز ثقافةً وشعبًا.
ذلك الوجه الصارم الذي يتوسطه شاربٌ حادٌ غليظ، العصا التي يُولد بها الجنين الصعيدي ملتصقةً في يده، طريقة الكلام التي تدعو للسخرية اللاذعة، وبالطبع ذلك الثأر الضروري الذي تتمحور حوله حياة الناس في الصعيد.
أطلق ذلك المصطلح الظريف: (جمهورية التليفزيون).
والحق أقول، إني اعتنقت في صِغري تلك الفكرة الأولى، التي ثبّتها التلفاز في عقلي عن الإنسان الصعيديّ، إنه إنسانٌ عدواني وُلد للثأر وفقط، وكأن النساء هناك يلدن ويُرضِعن ويُسمِّنَ الأطفال ليأخذوا الثأر: ثأر أبيهم، ثأر جدهم، ثأر الجد المؤسس.
هناك دائمًا ثأرٌ ما، الثأر مُقدمٌ على التعليم كما تعلم.
كان إنسان الصعيد مصدر فزعٍ في طفولتي، يأتيني في الكوابيس، يخرِّب عليَّ نومي، ويسألني: لم قتلت أبي؟ ثأري عندك، سأقتلك.. سأقتلك.
كبرتُ وهجرتُ التِلفاز ودخلت الجامعة، وأصيبت معتقداتي في مقتل، عندما رأيت أول إنسانٍ صعيدي على الحقيقة.
قتلتني الدهشة، فقد كان يلبس الجينز ويمشي بلا عصا يتوكأ عليها.
صار صديقًا لي، تحدثنا كثيرًا، لم ألحظ في لسانه خللًا ما، كان يحدثني بلهجة قاهرية عادية، لم يكن هاربًا من الثأر أيضًا.
بِربكم لقد سخر من فكرة الثأر أصلًا!
صار بقية زملائي من الصعيد أصدقاء لي، بمنزلة الأصدقاء المقربين - إن أردت الصدق- يتفاهمون ويأكلون ويشربون ويجشأون، بل إنني - وأرجو أن تصدقني في هذا ولا تتهمني بالجنون- وجدت كثيرًا منهم يتابعون أفلامًا أجنبية.

قبل يومين، كنت أتابع عرضًا تليفزيونيًّا ما، على الإفطار، قبل أن يتساقط على الشاشة سيلٌ من الإعلانات المدفوعة الأجر من كل شكلٍ ولون.

وبلا أدنى مقاومةٍ تُذكر، قفز المصطلح الذي أطلقه صديق أبي إلى رأسي مجددًا، استوطن رأسي هذه المرة.

فكرتُ فيه للحظات؛ فوجدتُه عبقريًا، عميقًا إلى حدٍ بعيد.

لا أخفيكم سرًّا؛ لقد تمنيت حقًا لو كانت (جمهورية التليفزيون) تلك مكانًا حقيقيًّا، يقع في المسافة بين شبرا وبنها مثلًا.

فالبشر في تلك البلد الأسطوري البعيد رائعون حقًا، ولطيفون جدًا.

هنالك تلكُ الفتاة الجميلة تبتسم لك في عربة المترو، وتبسط يدها وكأنها تقول: أقبِل يا هذا، لنا في المترو حياة.

-أذكرُ تلك المرأة التي صفعت قفاي في زِحام المترو واغتاظ -

هنالك المُزارعُ النظيفُ جدًا، الذي ليس على وجهه من آثار الإرهاق والتعب أثرٌ قليلٌ أو كثير. وكأنه فلاحٌ في الريف الهولندي.

-أذكرُ جارنا الذي نشبتْ أظافرُ الشمس في وجهه وظهره، وأتعبه التهاب الكبد الوبائي، وأتحسّر.-

هنالك البائع المتسامح جدًا، المُهذب جدًا، الذي تكاد الطيبةُ تفرُّ من عينيه المسالمتين؛ ليلغي بذلك كل أفكارك عن الباعة الذين رأيتهم في حياتك.

-أذكر البائع الذي أجبرني على شراء ما لا أحتاج تحت تهديد السلاح الأبيض، وأخاف-

هنالك السائقُ الملتزم بقواعد المرور حد الهوس، الحرصُ على راحة الرُكاب مسألةُ شرفٍ بالنسبة له.

-أذكر السائق الذي أوشك أن يصفع امرأة كانت تركب إلى جانبي، وارتعب-

هنالك العابرُ الطيب بسيارته المكشوفة، الذي يأبى إلا أن يُقّلَ الطالب المسكين الذي تعطلت سيارته الجيب، وستفوته الامتحانات.
-أذكر الغني الحقير الذي مرّ بكاملِ سرعته على بركة الماء، وأغرقني في الوحل.. أذكره وأمتعض-
هنالك الولد القوي ذو الإرادة الحديدية الذي يقول لا للمخدرات.
-أذكر صديق الطفولة الذي ذهب في هذا الطريقِ ولم يعد.. أذكره وأغرق في الحزن-
هنالك بشرٌ لا يشبهون البشر، يجعلونني أتحرّق شوقًا لشراء بيتٍ - أو قطعة أرضٍ حتى - في تلك البلدة المثالية البعيدة الخيالية الخالية من زحام المترو، ووجع المزارع، وجشع البائع، وبلطجة السائق وسطوة المال.
آخر قطرة في سيل الإعلانات، مشهدٌ صغير تظهر فيه طفلتان وُلدتا للتوّ، يهمس أبواهما في أذنيهما:
" بسم الله عليك، أستودعك الحافظ من رأسك حتى قدميك.
اللهم إني أُعيذ قلبها باسمك السلام.
من التعصب والتطرف والظلام.
ربي حبيبي اربط على قلب ابنتي العفو عند المقدرة.
فسلام لما تفعل لما تسمع لما ترى"
تكبر الطفلتان، تصيران مُغنيتين أحفظُ وجههما، يغنيان في تبادل:
"لا تحرس سجنا يحب الله مسجونه.
لا تخدش طفلاً تستتر بدين وتخونه.
لا تكسر قلما لتصادر رأيه فالفكرة حية.
لا تفصل فتواك كي ترضي مولاك
فالله سيلقاك"
. تذكرت شيئًا ما، وأغلقت التلفاز-

(ع المطبخ)

لَكَمْ من مرة تساءلت جِديًّا، بيني وبين نفسي عمّا يُغضب الإناث ويُحنِقهن، في التعريض بالحديث عن علاقتهم بالمطبخ، أو ذكرها صريحةً في عبارات تحمل طابعًا ساخرًا مثل: "إلى المطبخ" أو "يلّا على المطبخ".

ولست أجدُ الأمر مُهينًا ولا جارحًا، فالمطبخ هو بيت للمرأة داخل بيتها، وحياة أخرى داخل حياتها، ومكان ترتقي منزلته في قلبها مُرتقى صعبًا، إذ سلامة المطبخ وحسنُ نِظامه، أولى عندها من جودة الطعامِ وهِندام الأطفال.

أقصدُ أنه مادام (تأبط شرًّا) قد رأى في صعلكته عِزًا ومجلبة للفخر، للحد الذي جعله ينظم بيت الشعر الذي يقول فيه:

ولا أسألُ العبدَ الفقيرَ بعيرَهُ

وبُعرانُ ربي في البلادِ كثيرُ

فما الذي يمنع النساء إذن، أن يفخرن بوجود المطبخ في حياتهن، وما الذي يدفعهن للمسارعة في إنكار علاقتهن بالمطبخ، وصلتهن به، وكأنها سُبّة تنتقص من أنوثتهن أو شُبهة تستأهل الدَرْأ!!

وقبل أن تتهمني بالعنصرية ضد النساء، أو التعصب لهن: -فكلاهما صار تهمة الآن-، وقبل أن تسارع عصبة من النساء لتسرد لي تاريخ المرأة -الذي لا أنكره- منذ فجر التاريخ بداية من أم المصريين (إياح حتب) التي قدمت ولدها (كاموس) وزوجها (سقنن رع) في حرب الهكسوس، انتهاءً بابنها المِغوار (أحمس) الذي أُجري علي يديه النصرُ لِمصر، قبل كل ذلك اسمح لي أنْ أُهدئ من روعك قليلًا وأهمسَ في أذنك أنني ما عن علاقةِ النساء بالمطبخ أردتُ الحديث، وإنما أردت

الحديث عن علاقتي أنا بالمطبخ، والتي تشبه كثيرًا علاقة السائحين الأجانب بمصر.

ولعلّك تستغربُ هذا التشبيه الغريب البعيد وتعجبُ منه، لكن إذا عُرف السبب بطل العجب.

في كتب المثيولوجيا، هنالك دومًا قصة تلك الجزيرة المعزولة: (أونتارك) التي نزح إليها السحرة هروبًا من المحرقة التي دُبرت لهم بليلٍ في العاصمة أثينا.

وفيما أهل الجزيرة كلهم نيام، قصد السحرةُ مطابخ المدينة وأعملوا فيها سحرهم الأسود، فلم يتركوا سكينًا ولا إناءً إلا طلوه بطبقة من السم المميت على الفور، ثم انتظروا.

أصبح الصبح، وسرت الحياة في الجزيرة، وسرى معها الموتُ أيضًا.

ويُقالُ إن من تلك الجزيرة بدأ السحر الأسود وانتشر.

حين تسوقني الأقدار إلى المطبخ، فإنني أجد في ذلك فُسحةً لذيذة.

فحدث كهذا لا يتكرر إلا مرة أو مرتين في الأسبوع، تستغرق كل منهما دقيقة أو دقيقتين على أقصى تقدير.

وإني لأحسد حقًا الأمهات أو الزوجات أو الإناث عمومًا على الأوقات التي يقضينها في المطبخ، إذ أجد متعة غامرة في استقبال الحوض وغسل المواعين.

والمواعين لفظٌ عربي فصيح، مفردها (الماعون)، وهو اسم يطلق على ما يُنتفع به من مرافق البيت كالأطباق والملاعق والقدور وغيرها، وليست -كما يظن البعض- لفظة يقتصر استخدامها على طبقات الشعب المُهمّشة البسيطة.

نعودُ إلى التشبيه الذي سيرتكز عليه هذا الحديث الذي لن يفوتك الشيء الكثير إن فوّته: فأقول:

إن زيارات السائحين إلى مصر تستغرق وقتًا إجماليا من عمرهم كالوقت الذي أقضيه أنا من عمري في المطبخ، ولعل ذلك أيضا يجلي سبب حبي للمطبخ وحب السائحين لمصر، في الوقت نفسه الذي ترى فيه الإناث المطبخ مكانًا أقل من العادي، ويجدُّ فيه المصريون في البحث عن وسيلة لمغادرة مصر!

إننا نرى ما نسمح لأعيننا أن تراه ثم نغضُّ الطرف عمّا لا يروقنا، وإن كنا ننظره.

نحن نرى الطعام الشهي، والعصائر المُرطبة في الصيف، والمشروبات الساخنة في عمق الشتاء القارس، ثم نقدر هذا الطعام أو ذاك، ونشيدُ بهذا المشروب أو ذاك، ناسين أو متناسين المكان والشخص والأدوات التي أخرجت لنا تلك التُحف البديعة.

أنا والكثير منكم -إن لم يكن الظنُّ خوّانًا- رأينا المطبخ تمامًا كما رأى السائحون مصرَ: فهم رأوا مصر الأهرامات، ولم يروا مصر العشوائيات والحواري القذرة، عرفوا بمصر النيل، ولم يعرفوا بمصر العطشى المجدودبة الجُرُز..

أبصروا مصر من فنادق الخمس نجوم، ولم يسمعوا ببيوت بلا سُقف ولا أعمدة..

علموا حق العلم مصر السيّاح التي تحتضنهم وتجعل من روحها روحًا لهم فإن يشاءوا مشوا على خدِّها، وإن امتنعوا تمتنعْ، ولكنهم لم يجربوا مصر المواطن العادي الكادح المُهانِ المهدر الكرامة الذي لا يعلم بحاله إلا الله. أقولُ: لقد عرف السياح مصر نيلًا وأهراماتٍ وتاريخًا وحضارة، لكنني أقسم أنهم لم يعرفوا مصر فقرًا ولا حزنًا ولا إنسانًا ولا واقعًا.

وبإمكانك أن تجرب هذا لتختبر صدق قولي، كل ما عليك أن تلقي كلمة مصر أو Egypt على مسامع أحد الأجانب، فإذا به يستفيض في وصف

إنسان خيالي، عمره سبعة آلاف عام، له رأس إنسان وجسم أسد، تمتلئ جيوبه عن آخرها بأوراق البردي، ويحفظ سر التحنيط وانعدام الجاذبية، ثم يدهمك بسؤال غريب: كيف استطعتم -أيها المصريون- إيجاد شيء بحجم وضخامة أهرامات خوفو وخفرع ومنكاورع من العدم؟

أراهن أن ذلك المصري الذي يقضي حاجته خلف المسلّات أو في أزقّة القلعة إن اقتضى الأمر، ذلك المصري الذي ربما يظن أن خوفو وخفرع ومنكاورع هم ملائكة العذاب، ذلك المصري الذي يستحمّ مع دابته في النيل الذي هو هبةُ مصر وسر حياتها، ذلك المصري سيجيب بكل اعتداد وفخر، مستعيرًا جملة شهيرة لـ(محي الشرقاوي) من فيلم (فول الصين العظيم): "المصري معروف بقوته.. بجبروته".

ولأن الحكم على الشيء فرعٌ من تصوره: فلا تنتظر من فتى مدللٍ أو فتاةٍ مُرفّهةٍ أن تحدثك حديثًا ينتهي بجملة: (ولنا في المطبخ حياة).

بالطبع لن يحدث، فهم عرفوا المطبخ مذاقًا وليس طهوًا مُكلفًا مُرهقًا، عرفوه رائحةً وليس صهدًا تنفثه الأفران نفثًا، عرفوه ملابس نظيفة، وليس غسّالة تصدر ضجيجًا مستمرًا.

مع كل مرة يستطيل فيها وجودي في المطبخ، لسببٍ يتعلق بالمطبخ نفسه لا التسلية، من إعداد الإفطار حينًا، إلى عمل بعض المشروبات حينًا آخر، لا أخرج إلا وقد وَقَرَ في قلبي يقينٌ قويٌ بأن كل الأمهات مُقاتلات شريفات يستأهلن وسامًا كلما لمست أقدامهن أرض المطبخ أو رفعت عنها.

بالأمس كنت أُعد كوبًا من الشاي، فعنَّت لي تلك الخاطرة وألحت عليَّ؛ ولكنني رددتها عن عقلي وقلبي ردًا عنيفًا، وأبيتُ أن أدونها؛ حتى لا تشغلني عمّا كنتُ فيه من أمر الدراسة الذي لا ينتهي ولا يزول همُّه.

صباح اليوم، كنت أُقطع شرائح البطاطس تحضيرًا لإلقائها في الزيت لِتُقلى؛ فهاجمتني خاطرة الأمس تلك بعنفٍ وإصرارٍ ماضيين، فلم أجد بُدًّا من تدوينها على تلك الصورة.

قبل خمس دقائق من كتابة ما تقرأ الآن -إن كنت من الشرفاء الذين يرون فيما أكتب ما يستحق وقتهم الثمين فأكملوا- قصدتُ المطبخ لأشرب كوبًا من الماء؛ فإذا بقصة ميثيولوجية -لم تكتب في كتاب ولم يسمع بها أحد غيري- تولدُ في رأسي عن جزيرة منحتها اسم (أونتارك)، فألفتها ووضعتها في مكانٍ ما من هذا النص.

مثل تلك الأشياء لا تترك لي متسعًا إلا لسؤال وحيدٍ أوحد: إن قضيت نصف الوقت الذي تقضيه أمي في المطبخ، متى سأصبح قادرًا على إصدار أول كتابٍ لي؟

(رَغبات)

رَغباتْ..
أُريد قلبًا جديدًا غير قلبي المهلهلِ هذا الذي أتعبه السعي، وأرهقه التمني، وآلمهُ الخذلان، ورقّعته أيدي المارّةِ ومواساتهم الجافّة وعطفهم المبتذل.
أُريد قلبًا جديدًا لأُعلّمه التحليق عاليًا عاليًا، بعيدًا عن أشواكِ الأحقادِ، وأغوالِ الضغائنِ، وأفواهِ الزمن.
أُريد قلبًا جديدًا، أحفظهُ بعيدًا عن بائعي الحبِ، وتُجارِ الألم، وقوّادي المشاعر.
أُريد قلبًا جديدًا: لأشربَ من نبعِ الحب الأول ما وسِعتني الطاقةُ، حتى إذا ارتويتُ؛ عُدتُ فطلبت قلبًا جديدًا لم يألف الحب ولم يجرِبه؛ لأعود فأشرب من هذا النبع وأرتوي ريًّا أبديًّا.
أُريد عينًا جديدةً لمْ تتعود رؤية البؤساء ولا الشحاذين ولا أبناء الليل. عمياءَ عن السوادِ والعيوب وذلّاتِ الأصدقاء، مُفتَّحةً أمام البحر والحديقة والأغاني البيضاء.
أُريد أنْ أسافر من أقصى العالم إلى أقصاه؛ لأرى الشمس تُشرقُ مرتين.
أُريد أنْ أرى الغروب على متن سفينةٍ مُحمّلةٍ بالعُشّاقِ وبائعي الورد.
أُريد أنْ أبيع الورد في إشارة مرورٍ، تحت ظِل القمر.
أُريد ألا يغيب القمر..
أُريد أنْ أكتب كتابًا عن طفلٍ بيتهُ الشارع، عن أرملة لم تنجب، عن أمٍ مات وليدها في حجرها، عن اللحظات الأخيرة في حياة شمعةٍ أُعدت لعشاءٍ رومانسي، عن عائدٍ من الموت، عن مُقبلٍ عليه، عن صرخة

جوعٍ مُحرقة، عن سيرةِ دمعةٍ من الترقرق إلى السقوط، عن طفلٍ صغير يريد أن يلمس السماء.
أُريد أنْ أكون رسول سلامٍ في ساحة الحرب.
أُريد أنْ أكون ساعي حبٍ في جوف الليل.
أُريد أنْ أطرق أبواب الكسالى كل صباح.
أُريدُ أنْ أزرع الصباح في قلب كل كسول.
أُريد أنْ أُقشِّرَ الحياةَ من الأوجاع، وأن أُقشِّرَ الانتصارات من الحزن، وأن أُقشر الدروب من الحُفر.
أُريد أنْ أتسكع مع حبيبتي، دون أن يحسدنا القمر، ودون أن تتهامس عنّا النجوم، ودون أن تتداعى الأشياء.
أُريد أنْ أسكن كوخًا صغيرًا منعزلًا عن العالم، به ألفُ مأوى للفراشات والعصافيرِ والأرانب والأغاني والكتب.
أُريد أنْ أشُقَّ نهرًا أسفلَ كل نافذة.
أُريد أنْ أبني قرية صغيرة، أملؤها بالحب والأطفال وأثداء الأمهات.
أُريدُ أنْ تعيش أمي للأبد.

عشر دقائق

حين تسقطُ الشمس..
وقبل أنْ يرتفعَ القمر..
هنالك عشرُ دقائقَ أريدُ أن تقفَ عندهم الحياةُ طويلًا، أو ربما للأبد.
في تلك الدقائق العشر، أحبكِ أكثر من أي ساعةٍ في اليوم.
في تلك الدقائق العشر، أركلُ الشمس على مؤخرتها، وأستعجلها في المغيب.
في تلك الدقائق العشر، أشتمُ القمرَ الذي يطرقُ أبواب السماءِ، وأحذرهُ أن يتخطى العتبات، فإن فعل وتوسط السماء؛ فإنني أسحبه من أذنيه موبخًا، كطفلٍ أفسدَ كعكة العيد أو أَبكى أخته الصغرى..
في تلك الدقائقِ العشر، أعيشُ عشرَ سنواتٍ بيضٍ من الحبِ واللهفةِ، أُخرجُ فيها لساني للزمن، ثم أدير ظهري، وأركض.
لعشرِ دقائق أركض؛ كي أصل للدقائق العشر، حين تغيب الشمس وقبل أن يرتفع القمر؛ فهذا يعني أنني أحبك.

مساء الخير يا حُلوة.

على إحدى نوافذ بيتكم، ينقر عصفور صغير كل صباح.. تخرجين له بالحبِّ فيأكل، ثم يعود ذلك الواشي الصغير إليّ، ممتلئ البطن، قرير العين هانِيها.

حدث اليوم شيء غريب، تفقدّت العصفور فلم أرَه، وانتظرت حتى ملّني الانتظار. لم يعد العصفور حتى اللحظة؛ مما دفعني للتفكير بأمرين، أحلاهما مرٌّ.

إما أن المسكين قد اعترضَ طريقَهُ بعضُ الجوارحِ، فانقضّوا عليه ونالوا منه ما أكره.

أو أنك رددتيه عن الشباك ردًّا عنيفًا، وحرمتيه وضوءَ الشمسِ مشروبَ الطاقةِ الصباحي:

صوتكِ الناعس، والتماعَ عينيك البنيتين.

وكلا الأمرين مخيف؛ فلو كانت الأولى لهان عندي الخطب، واحتسبته عند الله رسولًا أمينًا، وساعيًا حنونًا، واستهديت الريح سلامكم إذا هي أقبلت نحوكم بهبوبِ.

وأما إن كانت الثانية، فيا للعصفور المسكين! ويا لصاحبه التعس! ويا لشعاع الشمس المنكسر!

مساء الخير يا حلوة.

أعلم أنك الآن حزينة، وحزنك عندي أفولٌ للشمس، ووحشة للقمر، وتمردٌ للكواكب على حكم المدارات.

تعالي أحمل عنك الآن، نحزن معًا.

حزنٌ تحت ضوء القمر..

تعالي أقطف لكِ بعض النجماتِ وغيمةً، تخبئينها في سريرك.

نغني معًا: (على بابي واقف قمرين واحد م السما)، تضحكين لرداءة صوتي، وتقولين "شششششش"، فأ"شششششش".

تعالي محمّلة بهموم تثقل الكواهل . وعودي بأغنيةٍ بيضاء.

تعالي يا ملاكي.

حدثيني عن كتبك، معشوقك (غاليانو)، عن المعانقات وكرة القدم.

وأنا سأحدثك عن الله والعشق والهوى.

سأرتجل لكِ ألفَ بيت من الشعر، وستضحكين من ركاكتها وتقولين "اخرس"، فأخرس.

تعالي واحملي معك آلامك وآلام حيّكم، وآلام العجوز التي تفترش آخر الشارع.

حدثيني عن كلب جاركم العقور، عن حزنك عليه رغم ذلك، عن الشجرة التي هناك، عن اسمينا المنقوشين أسفل الجذع، عن أسماء العشاق في أعلاه.

مساء الخير يا حلوة..

مساء الخير يا قديستي الحلوة..

تعالي.

كالمهر الحَرُونِ مرة، وكالحمل الوديع مرة.

كالعادة تجيئين بمصحفكِ ولوحاتك المزخرفة، تقولين: خمّن! فأخمّن ولا أصيب كعادتي.

تناوليني المصحف، وتقولين اقرأ؛ فأقرأ.

تلتمع عينيك ويسيل الدمع مشعشعًا في خشوع.

بنشيجٍ مكتوم وحنوّ مألوف تطلبين إليّ أنْ أُكمل، فأُكمل.

تعالي نفترش الأرض ونلتحف السماء، نتحدث في سذاجة عن قانون الإصلاح الزراعي، وحقوق المرأة في الدستور، عن محمود درويش، والقهوة التي يحبها العالم كله إلا نحن.
ونضحك منهم ومن أنفسنا ومن العالم.
"وليكن ليلنا طويلًا طويلا
فكثير اللقاء كان قليلا
سوف تلهو بنا الحياة وتسخرْ
فتعالي، تعالي أحبك الآن أكثرْ"

(تفاصيل)

تشغلني الفتاة التي هجرت حبيبها السمين، ويشغلني الشاب الذي ترك حبيبته التي استوطن المرض جسدها.
تشغلني الأمُ التي باعت طفلًا؛ لإخماد جوع إخوته، ويشغلني الآباءُ الساعونَ النهارَ حدبًا على أطفالهم.
يشغلني الطبيب المستنفر، وساعي البريد الكسول.
يشغلني الطيرُ الحرُّ في السماء، أي شيءٍ يقيه وجع البرد ولذع الحرارة!!
تشغلني الطفلة التي تتحسس صدرها الذي اكتنز، ويشغلني الطفل الذي أحسَّ – لتوّه - ماءَ الحياة يسيل.
يشغلني نخلُ السماءِ الأحمر، وحبُّ القمح المطمور، أيشعران بالوحدة والخوف هناك أم لا!
تشغلني عاهرةٌ مُضطرة، ومنافقٌ مُستغنٍ.
يشغلني السارق الواثق، وصاحب الحق المرتعش.
تشغلني النجماتُ الساهراتُ الليلَ، تحرس حبًا خُبِّئ في الدفاتر.. وتشغلني أعمدةُ الشوارع، إذ تشهد على المطرودين من جنات الحب.
يشغلني عواءُ ذئبٍ، يقض مضجع طفلٍ صغير، وبكاءُ شيخٍ في جوف الليل، أشعلت نيران الذنبِ سريرَه.
يشغلني طالب علم، حال الإرهاقُ بين النوم وعينيه؛ فنام بين سطرين متكئًا على قلم.
يشغلني الهمّازون المشاؤون بالنميمة.
يشغلني الطفل الذي بات محمومًا، وأمه التي باتت - باكيةً داعيةً - تصيخ السمع لأنّاته الضعيفة.
تشغلني العيون المبتلّة ألمًا وشوقًا وخوفًا وطمعًا.

يشغلني الأملُ الذي يوشك أن ييأس.
والحياة التي توشك أن تموت.
والبدايات التي توشك أن تنتهي.
والسطوع الذي يوشك أن يأفل.
والتفاصيل التي توشك أن تختنق بين الخطوط العريضة.
تشغلني التفاصيل التي انشغل الكل عنها.
وتشغلني الحياة.

(أحزان عاديّة)

كنتُ أعبر الشارعَ أنا وثلاثةٌ من أصدقائي.. على مرْمى البصرِ رأيْنا صبيةً صغيرةً، لها عمرٌ يُعدُّ على أصابعِ اليدين، تدفعُ عجوزًا تجلسُ على كرسيّ متحرك.

كان من المفترضِ أنْ تكونَ الصبيةُ قد انتهتْ من بيعِ الورود لجموعِ المُحبين المنتشرينَ على طولِ سورِ الجامعة، أو لأولئك الأطفالِ في مِثلِ سِنّها وهم ذاهبون إلى المدارسِ أو عائدون منها.

لكنها - ولدافعٍ أجهلُهُ - قررتْ أنْ تتخلى عن المَهمَّةِ الموكلةِ إليها ولا تملكُ رفاهيةَ رفضِها، وأنْ تساعدَ تلك المرأةِ التي ترتدي الأحزانَ الكبيرةَ والأسمالَ الباليةَ، وتدفع كُرسِيَّها المتحركَ عبر الشارعِ؛ ليس لِكبر سنِ العجوز وعجْزِها عن الحركةِ فقط، بل أيضًا لِئلا تدهسَها سياراتٌ طائشةٌ لا ينجو منها حتى الرُّجالُ الأصحاءُ، وما أكثر الأشياء الطائشة في مصر!

سريعًا كطلقةِ مُسدس، اندفعَ صديقي عابرًا الرصيف، ليمُدَّ يدَ العونِ، فلمْ يكنْ مِنا إلا أنْ تبِعناه.

حملتْ الفتاةُ الصغيرةُ، ما تبقَّى من ورودٍ حمراءَ قدْ وضعتها على قدمِ العجوز، ثم أطلقتْ ساقيْها للريحِ، وابتلعها الزِحامُ.

لا أنكرُ أنَّ شيئًا بداخلي يؤنبني لأنني لمْ أكنْ الأسبقَ لتلكِ الخطوةِ من صديقي.

لقد تأخرتُ عن المساعدة رُغم أنها لم تُطلبْ مِني، حسِبْتُني سأهُبُّ فَزِعًا، أدفعُ كرسيَّها وأحملُها على كتفيَّ إنْ استلزم الأمر، لكنني - ولسببٍ ما- لمْ أفعل.

رُغم أنني أدَّعي دومًا أنني إنسان، يؤلمني ما يؤلمُ الإنسان، ويسعدني ما يُسعدهُ، لكنَّ القيم تُختبرُ بالمواقف، وقد فشلت.

على كل حالٍ دفعْنَا كرسيَّ العجوزِ ومضيْنا.

أربعةُ شبابٍ يدفعونَ عجوزًا متهالكةً، يعبرونَ بها الرصيفَ بعد الرصيفِ، الشارعَ بعد الشارعِ، يستمهِلون السائقين المندفعين كالسيْلِ العَرِم، ثوانٍ حتى تعبرَ، ويجعلونَ من أجسادهم سرابيلَ، تقيها بردَ الشتاءِ الكئيبِ، وحرَّ التخلّي المؤلِمِ.

ربما كانَ ذلك المشهدُ ليكونَ أكثرَ شاعريةً وحميميَّةً وإلهامًا وبِرًّا، لو كانَ هؤلاء المحيطون بها هُمْ أبناؤها، لكنهم ليسوا هم.

المؤسفُ أنهم لنْ يكونوا أبدًا هُمْ

قالتْ تخاطبُ السماءَ، والدمعُ يقطِّع صوتها تقطيعًا:

يا ربُّ، لا أعرفُ ربًا غيرك؛ فأدْعوه.

ولدي حبيبي، فلذةَ كبدي، ومهجةَ فؤادي، على ذلك الرصيفِ ضربني، أخذَ ما في جيبي ورَمَاني، وعلى تلك الأرضِ تركني.

كلُّ ذلكَ من أجل امرأةٍ نذْلةٍ خائنةٍ، تزوَّجَها بعد ما هجرَتْ زوجَها وأطفالَها الأربعة.

حذَّرتُه، منْ هجرتْ مرةً تهجرُ الثانية، ومنْ خانت مَودَّةَ العمرِ الطويلِ، لنْ تراعي معاشرةَ الأيامِ القصارِ.

لكنه مضى ولمْ يلتفتْ.

يا ربُّ، بُحَّ صوتي، وجفَّ الدمُ في عروقي.. التهمني البردُ والخوفُ والأمل.

كل يوم مع المساءِ أنتظر عودةَ ابني الضالِّ، يغسل قدمَيَّ بدُموعهِ ويعتذِرُ.. لكنَّه لِليومِ لمْ يأتِ."

قالتْ جُملتها الأخيرة تلك، في الوقتِ الذي مررْنا فيه على أُسرةٍ بلا أبٍ، أمٌ وولدان يفترشون الشارع، أحدهُما رضيعٌ تُلقمُه أمه ثديها، والثاني

منزوٍ منكبٌّ على كتابةِ أحرفٍ ما في كتابٍ ما، حينها تأكدتُ أن الابنَ الضالَّ لنْ يعودَ أبدًا.

كنَّا نسيرُ خلفَ العجوزِ بأرجلٍ ثقيلةٍ، وعيونٍ مُثبَّتةٍ في الأرض خجلًا وحزنًا، لا نَرى إلا موضعَ خطواتنا للأمامِ.

هل ثمّةَ واقعٌ يستحقُ أنْ تُرفع لأجلِه عُيوننا؟ هل هذه الحياةُ النذلةُ تستحقُ أن تُرى؟ هل ظلّ على تلكَ الأرضِ ما يستحقُ الحياة؟

ثمَ في منتصفِ الطريقِ والأسئلة، انفصلتُ عنهمْ وجلستُ على مقعدٍ من مقاعدِ الانتظارِ التي تَحفُّ جوانبَ الطريقِ، والتي من فوائِدها غيرِ المتعارفِ عليها؛أنَّها سريرُ أحدِهم حين تخلو الشوارعُ من البشرِ، وحِضنٌ لأحدهم حينَ تخلو الأيامُ من كلِ شيءٍ إلا القسوة، وملاذُ مطرودٍ من قلبٍ اتسع لكل شخصٍ إلا هو.. الشوارع منصةٌ للبكاء.

جلست هنالك وبكيتُ..

بكيتُ حتى بللتُ شعرَ ذقني الخفيفَ، وغطاءَ رقبتي القُطني، بدمعٍ مكلومٍ مؤلمٍ لا أنساه.

أخذتُ بكفيَّ أضمُهما إلى وَجهي؛ اتقاءَ أنْ تلتقيَ عيني بعينِ أحدِهم، فيحزنَ لِحُزني أو يرِقَّ لِبكائي، أو أمنحهُ -عن غيرِ عمدٍ- ليلةً حزينةً كئيبةً؛ إذ يقفُ أمامي ويحجبُ عني ذلك القمر، سائلًا: فيمَ انهمرَ الدمع وفيم كُفْكِف؟

وكأنَّ الحزنَ يأبى علينا أن نتنصرَ عليه بالبكاءِ. وكأنَّ الأحزانَ جميعًا أبناءُ أُمٍ واحدة، يدعو كلٌ منها إخوتَه لِوليمةٍ هي قلبُ أحدهمُ المُتعَب وروحه المُقيَّدة.

قاطعَ بُكائي طفلٌ صغيرٌ يداه رقيقتانِ ومُعذَّبتانِ، وعينه جميلةٌ وخائفةٌ: سيدي، أعطِني جنيهًا من مالِ الله.

قاتلَ اللهُ الحزن.

الغريبُ أنني أقطعُ ذلكَ الطريقَ كلَ يومٍ مرتين، لخمسةِ أيامٍ في الأسبوع، منذ ما يقاربُ السنتين. ما الذي تغيرَ في تلك اللحظة تحديدًا؟

هل هو استعدادٌ شخصيٌ للترحيب الحارّ بالحزنِ، وإفساح الطريقِ له، واستضافتِه كضيفٍ يستلزمُ إكرامُه؟

أم أنه حزنٌ عامٌ شاملٌ، يتسرّب من إشاراتِ البث التليفزيونية، وأسلاكِ الهواتف، ورقائق الجوَّالات، ومِحبرَة الصُحفِ، وضجيجِ الازدحامِ، وينتشر في الهواء؟

سنواتٌ طِوالٌ وأنا أُربّي الأمل، أرويه بدمي وماءِ روحي وأتعهده بالرعايةِ، وهبتُ عُمري للأمل، ثم تجيء مواكبُ الأحزانِ والآلامِ والأوجاعِ والحُبِّ العابرة، على مَراعي الأمل؛ فتصبحَ هشيمًا تذروه الرياح.

يبدو أنَّ أحدَ الأشقياءِ قد استلَّ سكينًا، وغرسها في قلبِ الأرض وقلبي؛ فانفجرتْ ينابيعُ حزنٍ عميق.

قبلَ أنْ نفترقَ، وينفردَ كُلٌّ مِنّا بسريرِه وحُزنه، قال صديقي: "يبدوْ أنَّني فقدتُ الأمل، لقدْ بدأتُ أكره"

(بابا، ليش بيقصفونا!!)

كنتُ معهم.. هناك.

كانت ساعةَ غروب.

صغارٌ تلهيهم أمهاتهم عن الجوعِ بكُرَةٍ لا تشبه الكرة.

وأمهاتٌ ترفعُ الأكُفَّ بالدعاءِ والضراعةِ، تُصوِّبُ عيونها هناك، نحو السماءِ التي صارتْ مَهطَلَ القنابل والمطر.

عجيبٌ أمرُ الحربِ، وأعجبُ ما فيه أن السماء هي العدو والملجأ.

ليستْ تلك أنقاض بيتنا؛ فقد اجْتُثَّ بيتنا من فوق الأرض اجتثاثًا.

كانت أيضًا ساعةَ غُروب.

غابتْ الشمس، غابَ بيتنا، وغاب معهما أبي وصوتَه المُتْعب.

كذلك هذا الحيُّ ليس حيَّنَا.

ففي الحرب تختلطُ الأحياءُ، ويختلطُ الأحياءُ، والموتى، الدماءُ والدموعُ.

كلُ شيء، تأتي القنابلُ بغتةً وتستحي أنْ تفرق هذا الجمعَ الكئيب.

تقتلُ القنابلُ الجميع.

بدأت الحربُ ونحنُ في أقصى سوريا، نحن الآن في أقصاها الآخر ولمْ تنته الحرب بعد!

سألتُ أبي يومًا: بابا، ليش بيقصفونا؟

كنت صغيرةً لا أزال، لأفسر تلك الإجابة التي لم تكن سوى إشاحة صغيرة بالوجه، وشلالات من دموع الرجال العزيزة.

لا أحب أن أذكر يوم القصف الأول ولا تفاصيله الموجعة كالخناجر.

فهو بالنسبة لي -رغم ما كان فيه من أهوالٍ يشيب لها الولدان- يومَ أصبحتُ وأختاي أيتامًا.

أخرجونا من تحت الأنقاض، غزا ذلك اللون الرمادي المختلطُ بالدماءِ جميع الوجوه الواجمة المكْفهِرّة، إلا وجه أبي.

وُسطى بناته كنت.. انتشلتني أمي وأختي الكبرى من تحت الأنقاض، طوّفنا المكان بحثًا عن أختي الصغرى وأبي.

(هناك...هناك) نادى أحدهم.

كان أبي وكانت أختي، جبينه الأشج، قُرْطها الفضي، محدودبٌ عليها، نظراتها المُكذِّبة، نبضها المتسارع، نبضُ أبي المتوقف، عويلُ أمي، انكفاءُ أختي، سؤالي: بابا ليش بيقصفونا!

صوت طائراتٍ في الجو، تدعو أمي أختي الصغرى إلى الداخل، كل الصغار تدعوهم أمهاتهم خوفًا من قصف الغروب.

لحظات ثقيلة من الانتظار والأنفاس المتهدجة، والشهقات المكتومة.

هو ذا الغروب من جديد.. الأرض تجرب الخيانة أيضًا.

صوت رصاصٍ يعلو من الجوانب، قنابل فسفورية تلتمع في الجو، رائحة الثوم تختلط برائحة الدم، و....طيف أبي هناك.

اندفع، تسحبني أمي، أقاوم، تُحكم قبضتها الواهنة، أفككها بكلتا يديّ.

أصرخ أبي..أبي!

تداهمني الرصاصة.. أترنّح.. خمس خطوات أخيرة نحو النور الذي حضر فجأة، النور الذي طلبناه زمانًا.

خطوة أولى قصيرة، صوت أمي النائحة الثكلى، بكاء أختيَّ.. رغبتي في نظرة أخيرة مُودِعة، رائحة الثوم تزكم أنفي.. أتحفز وأخطو خطوتي الثانية.

النور يقترب أو أنا من تفعل، خيط ذكريات صغير يتسرب إليَّ من عقلي إلى عيني، أبي القادم من عمله، أمي أمام التنور، أنا وإخوتي نشاهد مسلسلات الكارتون، أفراح العائلة التي شتَّتَ شملَها الحربُ، الشعور الأول بالحب.. ليلة السهر الأولى.. ال....الخطوة الثالثة.

مُسعفٌ مسكين منحتُهُ للتَّو، كابوسًا مُفزعًا سيؤرِّقُه لسنواتٍ قادمة، يقُضُّ مضجعه هذا المشهد:

لحظةُ غروب، فتاةٌ في مقتبل العمر، غارقة في الدم والتراب، رائحة الثوم المنبعث من قنابل الفسفور، تبادل طلقات النار، أسنانها تصطك، يحاول إنعاشها فتدفعه عنها دفعًا، تخطو خطوة رابعة سريعة مائلة.

النور قريب لحدٍّ يؤذي العيون.. أغمض عيني.. رائحة أبي تطغى على رائحة الثوم.. صرخة أخرى من أمي ينخلع لها قلب المُسعفِ المسكين.. يتبدد الظلام، بعيني المغمضتين أخطو خطوتي الأخيرة، أجثو على الأرض، يتعفر وجهي.

البياضُ ولا شيء سواه، يد أبي الممتدة نحوي، صوته المتعب من جديد، لا "هناك" في الخلف.

أحتضنُ أبي بشدة وأسأل في حذر: بابا، ليش بيقصفونا!

(إلى الله)

يا رب..
كنت معي يوم آنستُ وحشة في روحي؛ فطرقت كل الأبواب إلا بابك.. لم تتخل عني.
كنت معي في جموحي وطموحي، مطاردتي للأحلام والأماني، جهادي للوصول أولًا لكل الأماكن، إلا بيتك.
كنت معي، حين انشغلت بهم عنك، وحين انشغلوا عني، بقيت معي، لم تتخل عني.
كنت معي يوم طرقت بابك شاكيًا باكيًا أشعث أغبر من فرط ذنوبي، ناديتك: يارب! وأجبتني: يا عبدي.

يا رب..
كنت معي في ظلمة الرحم، وفي ظلمة الحياة
وفي ظلمة قلبي، كنت أنت النور في منتهى الطريق وبدايته وعلى كل شبر منه، آتيك خائفا مرتجفا، فتردني واثقًا مطمئنًا.
سمعتُ أحدهم في الليل يناجيك، يبكي:
(يا رب، يا رب، أنا المسكين الغافل، أنا الفاسد العاصي، أنا الكاذب الذي وعدك بالتوبة يومًا، ثم عاد إلى وحل المعاصي من جديد، أنا العاق الذي منحته، عينين ولسانا وشفتين، فكفر بأنعمك وجحد جميل صنعك.

يا رب..

أنا الذليل الذي وقف بمحرابك البارحة، وقبل البارحة، وقبل قبلها، وقبلها بسنة، وقبلها بسنين، بمناجاةٍ كهذه، غارقًا في شلالات من دموع وذنوب.

أنا الوقح الذي كنت تقبله كل مرة؛ فينكص على عقبيه مهرولًا إلى المعصية.)

بكيتُ لبكائه، وبكيتني لبعدي عنك، وبكيت شوقًا للحظات صدق كهذه: أجثو فيها على قدمي، أعفر وجهي بالتراب، أرفع أكفي إليك، أقول: سامحني، ساعدني، خذ بيدي النحيلة إليك، قد قلبي المتعب ناحيتك، اجعلها حولك يا الله، اجعل حياتي حولك، كن أنت بوصلتي في لُج هذا الليل البهيم، انتشلني من ضياعي ومن عتمتي الباهرة، ضع قدمي على صراطك المستقيم.

يا رب..

أعلم أنك شديد العقاب، أعلم أن عذابك هو العذاب الأليم، لكنني أعلم أيضًا أنك غني عن عذابي، وأعلم أن رحمتك سبقت غضبك، وأعلم أنك غفور رحيم.

أشهد أني رأيتك في عيني أمي يوم قامت في السحر تدعوك أن تحفظني وإخوتي لها.

أشهد أني رأيتك تملأ قلب هذا الفقير هناك، يوم كانت بطنه خاوية.

أشهد أني سمعتك في دعاء زوجةٍ ثكلى وأطفالها، رحل عنهم أبوهم دون وداع.

أشهد أنك كنت في دعوة كل مظلوم، وفي دمعة كل خاشع، وفي حديث كل محب صادق.

أشهد أنك الله الجميل الذي خلقني جميلا.

أشهد أن الطريق إليك آمن، لكنني من يختلق الحجج، ويبتدع العوائق.

يا رب..
هذا عبدك الذي خلقت، قد أقبل عليك بروح مهلهلة، يرجو رحمتك ويخاف عذابك، يرجو رحمتك أولا يا الله.. يحبك أولا يا الله.

يا رب..
إني لما أنزلتَ إليَّ من خيرٍ فقير.

(إنسانٌ وحيد)

أصدقاؤك يُقبّلونكَ في المناسبات، ويهاتفونكَ ليلة العيدِ، ويُراقصونكَ في الأفراح، ويُباركون عُمركَ في أعياد الميلاد، ويهتفون باسمكَ حين تتصدر لائحة الشرف وقائمةَ الأوائل.

لكن أحدًا لن يكونَ حاضرًا، حين تقررُ أن تسير إلى قلبِ البحر، حتى تغمركَ المياه وتغرق.

لن يومضَ هاتفكَ في عمق الظلام، حين يُلح عليك الاكتئابُ ويأمرك أنْ تهرب من المدينة في قطار الليل المتجهِ إلى المجهول.

لن تمتدَ يدٌ وتغلقَ نافذة الغرفة، التي قررتَ أن تغادر منها الحياة.

لن تسرقَ أصابعٌ متخفيةٌ، السكين المشحوذَ الذي تنوي به قطع حبل الآمال.

كم مرةً عليَّ أن أقول لك إنك إنسانٌ وحيدٌ رغم كثرةِ من حولك؟

كم مرةً على أن أقول لك إنك إنسانٌ وحيدٌ؟

لا أحد يعبأُ بأحزانك الصغيرةِ الكبيرةِ عندك.

لا أحد يهتم برغبتك الدائمة في إشعال المصابيح، وخوفكِ من النومِ في الظلام.

لا أحد ينتبهُ لحساسيتكَ المفرطةِ تجاه القهوةِ والأدبِ الرخيص وبعضِ الحشرات وكثيرٍ من البشر.

لا أحد يلحظُ استواءَ باطنِ قدمك، والتصاقَ فخذيك، ونَفَسَكَ الذي صار قصيرًا من عجزِ رئتيكَ وقِلّة أصدقائِكَ وكثرة خيباتك.

لكنهم يطالبونك بمواصلة السير، ويشيرون إلى النهاية من بعيد، ويقولون أنهم يؤمنون بك.. ثم يمضون مبتعدين.

ويعاودون الظهورَ في المناسباتِ وليلةِ العيد والأفراحِ وأعياد الميلاد وفي نجاحك الباهر: يُقبلونك ويهاتفونك ويراقصونك ويباركون عمرك ويهتفون باسمك، وكأنما يقولون:
كم مرةً علينا أنْ نقول لكَ إنكَ إنسانٌ وحيدٌ جدًا!

مساءُ الخيرِ يا حلوة..

هل ظلَّ وقتٌ كي ألتمسَ عندكِ لنفسي عذرًا رقيقًا، كي أعتذرَ عن تأخري في الكتابةِ إليكِ، كي أقولَ مساءُ الخيرِ يا حُلوة؟!
الوطنُ يغرقُ في الحزنِ، والحزنُ -كما كنتِ تقولين- أخو الصمتِ، وهكذا: جنحَ الوطنُ للحزنِ؛ فجنحتُ للصمتِ.
هذا الحزنُ الأليمُ الصامتُ، استحالَ غضبًا مشتعلًا.
أكاد أتميز من الغيظ، وتأتي كلمات (نزار)، لتزيد من تأجج النار:
(قلبي عليك، وأنتَ - يا وطني - تنامُ على حَجَر).
كتبتُ لأسألَ عن الوطن.
أتدرين يا حبيبتي ما الوطن؟

الوطنُ أن أعودَ من البحرِ مُحمَّلًا بسِلالِ السمكِ، لا بجثةِ أخي.
الوطنُ أن يكونَ ثأري عند ذبابةٍ سخيفةٍ أيقظتْ طِفليْنا من النومِ، لا عندَ شرطيٍّ تلذذَ بإطلاقِ النارِ عليهما.
الوطنُ أن يحملَني القطارُ إليكِ، لا أن يحملني القطارُ أنا وأنتِ إلى الموت.
الوطنُ أن أركضَ في الشارعِ وأطيلَ الركضَ، لا هربًا من الدبابةِ ولا لحاقًا بوسيلة نقل، ولا اختباءً من الوباء، بل لأرتبَ طاولةَ عشاءٍ رومانسي.
الوطنُ أن أحبكِ في بدايات السنة، وفي نهايات السنة، وفي كل الأزمنة، لا حين ينتهي القتلُ، وتهدأَ الحربُ في بلدي وفي رأسي .
الوطن ألَّا تمتلئ عيني بالأشلاءِ والجثثِ كامتلاءِ نهرٍ يوشكُ أن يفيضَ.
الوطنُ أن أتسكعَ على رصيفٍ أو أسفلتٍ لا تفوحُ منه رائحة الدم.

الوطنُ أن تكون الصورُ -كلُ الصورِ- بلا شارةِ حدادٍ سوداءَ في إحدى زواياها.
الوطنُ أن تلبس النساء السواد زينةً وألَقًا، لا حزنًا وحِدادًا.
الوطنُ أن تزدحمَ ذاكرتي بأيامَ تشبهني: يومِ ميلادكِ، لقائِنا الأول، أولِ قصيدة، آخرِ قُبلة، أطولِ عِناق، أصفى سمرٍ، فِطامِ طفلنا، يومه الأول في المدرسة، لا بأيامِ المذابحِ والمحارقِ والكوارث.
الوطنُ أن يكون الحاجزُ بين المُحبينَ والوردةِ، تلك الشوكةُ التي تحرُسُها، لا أنْ تختفي الوردةُ والمحبون، وتبقى الشوْكة.
الوطنُ أن أشيخَ حين أصلَ إلى الستين، لا في الثانيةِ والعشرين.
الوطنُ أن تقرئي عليَّ سورةَ الفلقِ؛ تبعدين بها الحسدَ عني، لا أن تقرئي عليَّ سورةَ الفاتحة، تستودعيني بها التراب.
أتعرفينَ ما الوطن يا حبيبتي؟!
الوطنُ ألَّا أفكرَ في هذا كله، ألَّا أخافَ من هذا كله، ألَّا أكتبَ هذا كله.
الوطنُ أن تكونَ رسائلي إليكِ فارغةً من كلِ شيءٍ إلا من الحُبِّ والسذاجة.
أن أكتبَ في شغفٍ -مثلًا-:
"عزيزتي، صباحُ الخير، لا جديدَ يُذكَر ولا قديمَ يُعاد؛ فما زِلتُ أستيقظُ كلَ يومٍ وأنا أُحبك.
اشتريتُ لكِ فستانًا بَنفسجيًّا وقبعةً ورديَّة اللون، ستبدين فيهما كأميرة.
رأيتُ اليوم طائركِ المفضل، فابتسمت.
المطرُ هطلَ البارحة بغزارةٍ، في السابعة إلا خمس دقائق.
الوقتُ يمضي ثقيلًا بدونك.
السينما هنا تعرضُ فيلمكِ المفضل، تمنيتُ لو شاهدناه سويًّا.
سنلتقي قريبًا..أعدك."

الوطنُ أن أموتَ حُبًا.
الوطنُ - يا حبيبتي - ألّا تضيع تلكَ الرسائل في الزحام.
لا تعوّلي على كلامي كثيرًا؛ فأنا عاطفيٌّ وساذج.
أنا مريضٌ ولا أمل في علاجي.. مريضٌ بالأمل المزمن في مراحله المتأخرة.
وحين أموت - وهذا الشيء الوحيد الذي ظل أكيدًا - بارتفاعٍ في ضغط الدم الشرياني، أو بالتهابٍ رئوي حاد، أو ربما بجرعة مضاعفةٍ من الخيبة، اكتبي على شاهدةِ قبري: "عاش محشوًّا بالأمل."
وحتى يصافحني الموت، قولي لي:
ما الوطن؟

(مسافةٌ آمنــة)

لا تقتربْ أكثر: فوجهُ تلك الفلاحةِ البسيطةِ، مُلغمٌ بالفقرِ والمرض.
لا تقتربْ أكثر: فعينُ تلك الطفلةِ الجميلةِ، محشوَّةٌ باليُتمِ والحرمان.
لا تقتربْ أكثر: فخلفَ تلك الأغنيةِ، قلبٌ ممزقٌ وألفُ وعدٍ كاذب.
لا تقتربْ أكثر: فبينَ سطورِ تلك القصيدةِ، خمسُ رصاصاتٍ ومئاتُ المجازر.
لا تقتربْ أكثر: فما وراءَ تلك الابتسامةِ، فتنةٌ مشتعلةٌ وموتٌ محتوم.
لا تقتربْ أكثر: فهذا السدُّ من الجهلِ، يحجبُ عنكَ طوفانًا من الأسئلة.
لا تقتربْ أكثر: فهذا الموتُ يتزيَّا بزيّ الحياة.
لا تقتربْ أكثر: ففي نهايةِ هذا الممر، حمامةٌ مقتولةٌ وشمعدانٌ مُحطَّم.
لا تقتربْ أكثر: فقد تلتقي بنفسك أو تراها في مِرآةِ الحقيقة.
لا تقتربْ أكثر: ستفسدُ اللوحة.
لا تقتربْ أكثر: ستقتلُ القُبْلة.
لا تقتربْ أكثر: ستُجْفِلُ العصافير.
لا تقتربْ أكثر: سيشيبُ الطفل.
لا تقتربْ أكثر: ستموتُ الرحلة.
لا تقتربْ أكثر: سيتبخرُ الأمل.
لا تقتربْ أكثر: سينتهي الطريق.
لا تقتربْ أكثر، وحصِّنْ نفسكَ بالابتعاد، حصِّنْ نفسكَ بالمسافةِ الآمنة.
فكِّرْ في كلِ الأشياءِ التي بقيتْ بعيدة، كيف أنها احتفظت بخصوصيتها، من حسنٍ أو قبحٍ أو هيبةٍ أو احتقارٍ أو قدسيةٍ أو غيرِ ذلك.

بعض المشاهد والمواقف والأشخاص ربما، يجب ألّا نقترب منها كثيرًا. جُعلوا لِنلقي السلامَ من بعيدٍ ونمضي، لِنلتقط لهم صورًا ونحصدَ الجائزة، دون أن ندري من هم وفيم عاشوا وكيف ماتوا.

لا تقتربْ أكثر: لأنك لا تريدُ أن تتشوَّه من قبحِ هذا العالم، ولأنك لا تريدُ لروحكِ أن تتلوثَ بمآسيه، وأيضًا لأنك تخافُ الحقيقة.

هذي هديتي إليك: ابقْ حيثُ أنت، ولا تقترب إلا من الله.

(هل نحن حقًا نستحق الأفضل؟!)

طوال سنواتي الدراسية حتى المرحلة الجامعية، كنت طالبًا نابهًا ممتازًا، يشهد على ذلك أساتذتي قبل أهلي، وزملائي قبل الكل.

كان تحصيل الدرجات بالنسبة لي أمرًا سهلًا يسيرًا، ولا يتطلب مني إلا أقل المجهود، اللهم إلا تلك السنة الأخيرة في المرحلة الثانوية، والتي تُسمّى - بتلقين جمعيٍّ - "السنة المصيرية": فقد زادت جرعات المذاكرة أضعافًا، وزاد معها القلق العامُّ المصاحبُ لتلك السنة، ولكنّ الله سلّم.

التحقت بكلية الطب، وبين مطرقة الاغتراب وسندان الإهمال، تدنت درجاتي بشكل مؤسفٍ ملحوظ، ودخلت في نوبة حزن عميق، وأنا أجد نفسي محاطًا بمن هم في سني، لا يزيدون عني ذكاءً ولا يمتلكون قدراتٍ خارقة، ورغم ذلك سبقوني.. كلهم.

ظننتُ -وأنا من لم يجرّب الانهزام أو التقهقر الدراسيَّ- أنَّ تلك الهزيمة هي النهاية، وأن ذلك المُصاب الجلل هو الذي سيطبع حياتي الجامعية الجديدة بطابع الفشل والقلق، وأن حياتي سُتحمل على كفّ تلك الهزيمة للأبد؛ وسأظل مطاردًا منها حتى نهاية سنوات دراستي الجامعية وربما حياتي العملية أيضًا.

سلَ عن هذا الشعور أي شخص يشكل النجاح ركنًا أصيلًا في حياته، سيخبرك أنه شعورٌ مُوحشٌ مؤلم.

جرب أن تعتاد سُكنى قمم الجبال، ثم تهب العواصف؛ فتجد نفسك تتدحرج إلى السفح، إنك ستنظر إلى القمة بعينٍ دامية، وقلب مكلوم، وتقول: ما أقصاكِ!

وقفت على حافة الاكتئاب وفقدان الثقة، وكنت على شفا حفرة من التشبع بالحقد والغل والحسد على زملائي الذين اجتازوا الاختبارات بتقديرٍ ممتاز بينما لم أفعل أنا.

ولكن الله انتشلني من تلك الغياهب السحيقة، وأذن لروحي أن ترفرف عاليًا بعيدًا عن أغوال الأحقاد.

أفقت من نوبة الحزن العميق تلك، ورفعت رأسي للسماء، ولأول مرةٍ في حياتي أجدها بذلك البعد، وأجدني بذلك الثقل.

حدث ذلك حين استيقظت في أحد الصباحات، ممتلئًا بسؤالٍ مُلِحٍ: "هل حقًا كنت أستحق الأفضل؟"

بنظرة سريعة على سنتي التي خلت، ومقارنتها بأسوأ السنين الدراسية التي مرت عليَّ، تيقنت أن الإجابة بلا، لن تكون ظلمًا مني لي، ولا إجحافًا مني بحقي.

ودون الخوض في كثير من التفاصيل التي لن تعني لكم الشيء الكثير، لكنها تعني لي عمرًا ضائعًا، أريد أن أقولَ أن محاولات البحث عن إجابة لسؤال الصحوة هذا، فتحت عيني على جوانب مهملة في شخصيتي، وساعدتني على إزالة الغشاوة عن عيني.

كان فشلي الصغير هذا -وكل فشلٍ- مفتاحًا سحريًا، أشعرني بالشوق الحارق لِلَذة النجاح من جديد.

علمني أن السقوط ليس بالأمر المخزي، طالما أنك تعاود النهوض مرة أخرى.

دفعني إلى الغوص في أعماق شخصيتي، والتعرف على نقاط قوة لم أصل إليها من قبل.

دعمني في مجابهة أعدى أعدائي.. نفسي.

جعلني كلما مررت بأية ضائقة، أسأل نفسي دومًا: هل حقًا أستحق الأفضل؟

هل حقًا أستحق الأفضل، وأنا أعبد الله على حرفٍ، وقد تركت صلاة عشاءٍ ذات خميسٍ بارد، ومنعت سائلًا حاجة، واتخذتُ القرآن مهجورًا!!

هل حقًا أستحق الأفضل، وقد أشحت بوجهي عن أمي، ونهرت أخي الأصغر، وهجرت صاحبي، وظلمت فلانًا من الناس، وفلانٌ قلتُ في حقه كذا وكذا، وفلانٌ كذبّتُه، وفلانٌ كذبت عليه!!

هل حقًا أستحق الأفضل وأنا لا أبذل المجهود الأفضل!!

ربما لم تتحسن درجاتي كثيرًا عن السنة الماضية، ربما لم تتغير إلا تغيرًا طفيفًا لا يكادُ يُلحظ، لكنها تغيرَتْ، وتغيرتُ معها أيضًا.

لكن هذا السؤال الصغير الواضح الجريء، جعلني أقف بكل اعتزازٍ بهزيمتي الصغيرة التي لم أنحنِ لها، أمام صديقي الذي يخطو خطواته الأولى في السنة الأولى الجامعية وأقول له:

"عما قريبٍ ستتكشّف لك الحقائق عن جلاءٍ، وتشخص أمامك عاريةً دون الحاجة لشواهد على ثبوتها.

ستعرف أن مشيك حين توقف الآخرون وصحوك فيما الكلُ نيامٌ قد آتى أُكُلَه.

ستشكر نفسك على شهوةٍ كبتّها، ورغبةٍ قمعتها، ورفاهيةٍ تركتها وأنت كاره.

ستجد أن هذه الأيام تمضي، وأن الإيماءات البسيطة من بعيد كانت أجدى من الأحاديث المطولة، وأن لطفك واطمئنانك الدائمين لم يوفرا لك ثانية فيما بعد، وأن الأسمار اللذيذة لم تفدك.

ستحاصرك أحلامك المُهملةُ كبضاعةٍ فاسدةٍ على أرصفة الانتظار والتسويف، كقبرٍ مخيف.

وسيلتهمك الندم كوجبةٍ دسمةٍ، جزءًا جزءًا، حتى إنه في اللحظة التي لن يبق فيها لك منك شيء، ستهتدي إلى أن استجداء لحظات الإفاقة لم يُفدْك، إذ كان عليك إحضارها بنفسكَ.. لنفسكَ.

كلُ ما هنالك أنَّ الحياةَ تحبُ المستنفرين..

والمستنفرون بالحياةِ جديرون."

أقول لكم: لو أننا كل يومٍ نسأل أنفسنا، إذا ما كنا نستحق الأفضل أم لا؛ فإن شيئًا ما بداخلنا مع الوقت سيتغير؛ حتى تكون الإجابة نعم، نحن نستحق الأفضل.

(مِفتاح)

يحدثني أبي دائمًا عن واجب الوقت، ولا تملُّ أمي من إخباري أن اليوم هو كل ما يهم. وجارنا المسنُّ ذو الرئة المهترئة يقف في الشرفة يدخن التبغ، ويقول لي وللمارة: اليوم، فرصة للحياة أيها الموتى.

وأنا ولدٌ مشاكسٌ غيرُ خبيث، قلبي في الماضي وعقلي في المستقبل، ودمي مفرق بين الأزمنة الثلاثة.

مريضٌ بالتفكير أنا، في الطريق إلى الجامعة أفكر في وجبة العشاء، وبين المحاضرات أفكر في ملابسي المتسخة التي يتوجب عليّ غسلها ونشْرُها وكيُّها وطيُّها، وفي الصلاة أفكر في واجباتي غير المنتهية، ودروسي المتأخرة، وأتخيلها قرب موسم الامتحانات تطاردني كطعامٍ تركته دون أن أنهيه؛ فجاء يوم القيامة يجري ورائي، كما كانت تقول أمي رضي الله عنها.

لكنْ، هنالك دومًا لحظةٌ واحدةٌ في اليوم، لحظةٌ صغيرةٌ وقصيرةٌ جدًا جدًا جدًا كما يليق باللحظة أن تكون، أتحلل فيها من كل التزاماتي وأضع عن كتفي أوزار التفكير في كل شيء وأي شيء، وأنسى الناس والأيام والزمن.

تلك اللحظة، حين أصل إلى باب غرفتي في نهاية اليوم، منهكًا ومُثقلًا بالهموم والدروس والكتب، ومعبأ بالسخط والزحام والأتربة، مشغولًا بسريري والراحة والنوم، لا يفصلني عن هذا كله إلا بابٌ أدخله وأغلقه دوني ولينتظرني العالم بالخارج.

أقول إن أهم لحظةٍ في يومي هي التي أقف فيها أمام غرفتي، وأتحسس جيبي باحثًا عن المفتاح، المفتاح فقط هو الذي في رأسي ولا شيء

سواه، لا المال ولا الحب الضائع ولا الملابس المتسخة ولا الدروس ولا أي شيء.. فقط المفتاح.

لحظةٌ ثقيلةٌ أدعو فيها الله لأن آتاني من فضله وحفظ مفتاحي من الضياع؛ لأصدَّقنَّ ولأكوننَّ من الشاكرين، ولأطعمنَّ ثلاثين مسكينًا، ولأقومنَّ الليل إلا قليلًا.

أفكر، ماذا لو ضاع المفتاح؟! أين أستريح؟ أين أنام؟ أين أختبئ من الناس والخوف والبرد؟! كيف أخرج من العالم وأدخل إلى نفسي؟! كيف؟!

في اللحظة التالية أكون قد أدرت المفتاح في الباب، ودخلت بسرعةٍ وأغلقت الباب في وجه العالم، وخلعت حذائي وأخرجت منه قلبي الذي سقط من شدة القلق منذ ثوانٍ قصيرة.

ورغم أني محترفٌ في إضاعة الأشياء، من العملات المعدنية إلى الحذاء، إلا أن العناية الإلهية في كل مرةٍ تتدخل وتنقذ مفتاحي؛ ليس ذلك بسبب الصفقة التي أعقدها مع الله آخر كل يومٍ أمام باب غرفتي، إذ تكون سخيفًا إن صدقت هذا؛ فالله جل جلاله وعز شأنه لا يعقد الصفقات..

ولكنني أظنها إشارة من الله، ولطفٌ خفي، ودروسٌ مستترة؛ كلها تدفعني للوقوف عند تلك اللحظة القصيرة جدًا لمدة طويلة جدًا أو لبقية حياتي ربما.

لماذا لا أعيش حياتي بنفسية تلك اللحظة.. بنفسية المفتاح!!

لماذا أحمل الأيام الماضية على كتفي ولا ألقيها في النهر؟!

لماذا لا أتخفف مما يؤرق صحوي ونومي، ويحجزني عن الإنجاز ويحجز الإنجاز عني؟!

وما يمنعني أن أرتب أولوياتي بشكل مختلف، يجعل حياتي لحظةً قصيرةً، تدور في أوقاتها المختلفة حول مفتاحٍ ما ولا شيء غيره، غير

عابئ بشكل المفتاح ولا ماهيته، ولكنه مفتاحٌ يستلزم ألا يضيع مني، ويستلزم ألا يشغلني عنه شاغل؟!

الآن انتقل المفتاح من جيبي إلى رأسي، وصار يذكرني بأبي وأمي وجارنا الذي أستعجب من صبر رئتيه عليه وحديثهم عن الحياة، ويجعلني أكف عن التفكير في العشاء والملابس المتسخة والدروس الفائتة، ويشغلني حتى عن ممارسة حياتي العادية، بل إنه يعوقني الآن عن اختتام هذا الحديث بخاتمةٍ قويةٍ مُرضية.

فليخرج أحدكم هذا المفتاح اللعين من رأسي ويعيده إلى جيبي مرة أخرى رجاءً.

(وَلْيَتَلَطَّفْ)

أفاق أهل الكهف من سباتهم الطويل، أحسوا بالفعل أنهم قد أغرقوا في النوم، كما يُغرق البشرُ إذا تعبوا من سفرٍ أو شغلٍ أو مرضٍ أو إذا استثقلوا الصحْوَ.

قدّروه باليوم أو بعض اليوم.. لكن ربكم أعلم بما لبثتم.

ليس هذا مهمًا تمامًا؛ فهم جوعى الآن، يبحثون عمّا يقيم الأود ويسد الرمق، بجيوبهم فضلُ مالٍ/ ورِقٍ، رافقهم لمّا فروا بدينهم من بطشِ أهل العدم.

كم عددهم؟ سيقولون ثلاثة رابعهم كلبهم، سيقولون خمسةٌ سادسهم كلبهم، سيقولون سبعة وثامنهم كلبهم، كلها اجتهاداتٌ لا تخدم مُرادنا، ربي أعلم بعدتهم ما يعلمهم إلا قليل.

المال موجود، والجوع حاضر، والمدينة هناك لم تخلُ من طعامٍ، والطريق إليها معروف، مشوْهُ هاربين من المدينة محتمين بالكهف.

لكنه غير آمنٍ تمامًا، وضباعُ الشر تترصدهم.

وقد يسهلُ التسترُ الجسدي لبعض الوقت، احتماءً في الظلال أو الظلام أو الأشياء، حتى إذا نطق المرء بانَ ما فيه من غموضٍ أو وضوح، أو عنفٍ أو رقةٍ، أو غلظة أو رحمة، أو ذكاءٍ أو غباء؛ فالمرءُ مخبوءٌ تحت لسانه.

ولعل ما استوقفني، وأحب أن يستوقف كل ذي عقلٍ وقلب، ذلك اللفظُ البديعُ المُحكم - كما القرآنُ كلهُ بالطبعِ-، (وَلْيَتَلَطَّفْ).

بإمكان الطفل الصغير والمرأة الشابة والرجل العجوز، أن يشتروا إن ملّكتهم المالَ ودللتهم على السوق، وبإمكان أي شخصٍ أن يقوم بتلك المهَمة البسيطة جدًا، في عاديّ الظروف وسويّ الأحوال.

لكن الحال اختلفت، وتلك حربٌ قائمة، تتجاوز الأشخاص إلى المعتقدات.. وذلك أدعى لتسلط الباطل وإمعانه في البطش.. إنهم إن يظهروا عليكم يرجموكم أو يعيدوكم في ملتهم ولن تفلحوا إذًا أبدًا.

ولعل (طرفة بن العبد) استوحى هذا المعنى، حين قال:

إذا كنتَ في حاجةٍ مُرسلًا

فأرسل حكيمًا ولا تُوصهِ

وكأني بأهل الكهف، يوصون رسولهم بكلماتٍ سريعة مقتضبة: اذهب للسوق، انظر أيها أذكى طعامًا، آتنا به، تلطّف ولا تُشعرنّ بنا أحدًا.

لم يقل له استتر، ولم يقل له أقلل الكلام أو استكثِر، لم يقلْ لا تتلفت، بل قال تلطّف، فقط تلطف: تلطف إذا دخلت المدينة، وتلطف إذا اشتريت، وتلطف إذا تحدثت، وتلطف وأنت تدفع إلى البائع نقوده، وتلطف وأنت تعود أدراجك للكهفِ من جديد.

تلطّف لئلا تستفزَ رائحةٌ الحق الزكية التي تفوح منكَ، أنوفَ كلاب أهل الباطل؛ إذْ يظهروا عليك وعلينا ويرجمونا أو يعيدونا في ملتهم.

ولعل الرجم ثم الموت أهون إلى نفوس أولئك الفتية من أن يُجاء بهم، مُسلْسلِين أو مُعذبين على نحو ما يجعل المرء يكفرُ مكرهًا وقلبه مطمئنٌ بالإيمان.

لذا كان لزامًا على الفتى الرسولِ أن يتلطف.

ثم مضت القصة، وكان ما تعرفون من أمر أهل الكهف، ذلك الذي قصّه النصُّ القرآني البديع.

تلك معجزةٌ حكاها نصٌ خالدٌ أكثرُ إعجازًا، فما حديثُ مسكينٍ ضعيفٍ مثلي فيه!

ولكنه حبُ الله وحب كتابه الذي أنزل على رسوله، ومحاولةٌ لسبر أغوار بلاغة ذلك النص العظيم الخالد الذي تُستقى من منابعه كل البلاغة.

فاغفروا ما تجدون من زلاتٍ؛ فالارتباكُ حقٌ هنا..

اللهم غُفرانك.

يا صديقي

لا تُشعل لأجلي ثورة، لا تشن لِأجلي حربًا، لا تحرق لأجلي روما، لا تُهدني حديقةَ وردٍ ولا بيتًا على جبل ولا نجمًا في سماء، لا تخاصمْ أحدًا لترضيني، لا تعتزل الناس لتؤنسني، لا تجاملني كثيرًا، لا تعطني أملًا زائفًا، ولا حبًا ناقصًا، ولا اهتمامًا تشوبه الشفقة.

علمني كيف أكسر القيود، وكيف أخترع الصُدف، وكيف أذوّبُ الأحقاد وكيف أحكي بشغف.

في الحزن، قل لي: لا تحزن، ستمضي كما مضت أخواتها.

في الفرح، قل لي: أنا سعيد لأجلك، لأجلنا.

في الخوف، قل لي: لا تخف، اطمئن، سنكون بخير.

في البعد، قل لي: أوحشتني، أشعرُ بالنقصان.

في القرب، قل لي: هذا رائع، نحن محظوظان ببعضنا.

في اليأس، قل لي: لا بأس، سنحاول مرةً أخرى.

في النصر، قل لي: لقدْ فعلتَها حقًا.. أنت رائع.

وفي كل وقتٍ، قل لي: أنا أحبك، أتفهم أسبابك، أرغب في بقائك، أريد أن أراك، أنت جميل، لقد أبليتَ بلاءً حسنًا، بإمكاني أن أساعدك، دعنا نسترح قليلًا ثم نكمل معًا.

كلمات قليلة لمْ تُكتبْ في كتب، ولم تُنقشْ على جدران معابد، ولم يقلها حكماء صينيون.

كلماتٌ قليلةٌ، ساذجةٌ وبسيطةٌ، لكنها صادقة.. كلماتٌ لا تنتهي بضمٍ ولا بكسرٍ ولا بفتحٍ؛ لكنها تحملُ معنى السكون.

أعطني ذلك -يا صديقي- ودفء منزلي، وخذ ضياء عيني.

(راء)

في الطريق، قابلتُ امرأةً لم تقلْ لي ما اسمها، لكنها قالت لي إني سأقعُ في الحب بعد عشر خطوات.

بعد عشر خطواتٍ قابلت امرأةً اسمها (راء) كانت تبيع الأحزانَ في السوق، أردت أن أشتري.. لكنها رفضت وقالت: أرى في عينيك حزنًا نبيلًا.

في الطريق، قابلتُ رجلًا يُفرّغ حقائبه من الحُب، ويقشر جلدها المصنوعَ من الحنين، لم ينظر في عيني، لكنه قال لي إن أمامي طريقَ سفرٍ بعد عشرِ خطوات.

بعد عشر خطواتٍ قابلتُ (راء)، كانت تبيع تذاكر النعناعِ والسفر.. أردتُ أن أشتري. لكنها رفضتْ وقالت: لا أبيعُ لمن يمتلكون رفاهية العودة.

في الطريق، قابلتُ طفلًا يتمسك بنَهْدِ أمهِ وحصانه الخشبي ويبكي.. حملتهُ على كتفي: فسكتَ وقال لي: ستقابلُ حُلمكَ بعد عشرِ خطوات.

بعد عشر خطواتٍ قابلتُ (راء)، كانت تبيع زجاجات الحليب والثورة.. أردت أن أشتري.. لكنها رفضت وقالت: لا أبيع لمن لا يمتلكون صوتًا.

بعد عشرِ سنواتٍ، قابلتُ نفسي في الطريق، كنت قد عُدت للتو من السفر، كان لي صوتٌ وعينان خاليتان من الأحزان، وقابلتُ (راء).

كانت تبيعُ الحُبَ المغلّفَ والأصدقاءَ العابرينَ والأحلام البعيدة وحبوب الأسبرين وأنصاف الثورات.

أردتُ أن أشتري، لكنها رفضت، وقالت: سنترك هذا كله هنا، ونكملُ الطريقَ معًا.

(سُكارى الحُبّ)

نحن بسطاءُ جدًا، وعاديون حتى الملل أحيانًا، لا نُرضي فضولًا. ولا نُخفي أكثرَ مما نُبدي، غيرَ أنَ ما نُخفيه واسعٌ كالبحرِ، كبيرٌ كالمجرة، عميق كالبئر.

نحن سكارى الحب، العائدون من الحنين، السائرون على أشواك الشوق، وكلما نادى مُنادٍ: "يا مساكين، هذا الحبُ موتٌ مؤجل.": صمَمْنا آذاننا ومضينا في طريقنا الشائك الشاقّ المُقْمِرِ المُزهِر، نسترجعُ الذكرى، ونذكرُ العهد، ونردد أغنية الأطلال.

والحريةُ رأسُ مالنا، وإرثنا من الحياة، ندافع عنها، ونحبها ونحميها ونموت لها، ولا نبتغي دونها بدلًا.. حتى إذا دهَمَنا قطار الحُب؛ تكسرت دروع القتالِ واستحالت أوراقَ وردٍ أو زخاتِ مطر.

ونستلِذُّ تعذيب المحبوب لنا، ونرضى ظلمه غير أننا لا نُقرُّه، ولا نملك إلى رفعهِ سبيلًا؛ فهو في محكمة الحُبّ، فيه الخِصامُ وهو الخصمُ والحكَمُ.

ونسلِّمُ أنفسنا للحبيبِ تسليمًا، نرضى إن دنا، ونترضّاه إن نأى، ولا تتسع الأرض لفرحنا الساذج جدًا إن صبّحنا بـ"صباحِ الخير" أو ودَّعَنا بـ"نلتقي قريبًا".

وحين نحبُ؛ نحب كثيرًا ونحب طويلًا، ونخفض جناحَ المودةِ والرحمة، ونحمل من نحبُّ على أكُفِّ الراحة.

ونستبْلِهُ أمام الحب، وتذوب الكلمات على ألسنتنا، بعضها يتبخر، والبعض الآخر ينمحي: أبياتُ الشعرِ التي اجتهدنا في حفظها، والغزلُ المُعدُّ على عجلٍ المكتوب على ظهرِ منديلٍ أو ورقة تقويم، وكلمات الحب المبتذلة التي حفظناها من الأفلام والأغنيات.

يخرج الكلامُ مُفككًا، فنعيدُ ترتيبه، فلا يترتب، ثم نحاول أن نسترجعه فلا نقدر، لكننا نضحك.. ونستحمقُ أمام الحب ونتصابى ونرجعُ أطفالًا، نتعلم أبجديات الحياة من جديد.

تسألينني من نحن؟ وما نريد؟

لا شيء سيدتي، لا شيء.

لم نطالِب بأكثرَ من لون الورد، ورائحة البحر، وطول الليل، وصوتِ الصمت، وذكرى الحب، وبردِ الشتاء الهادئ، والمطرِ الذي يبللُ ولا يُغرق، والحنينِ الذي يُنضجُ القلبَ لا الذي يُحرقه.

مِن هذه الحياة كلها لا نريد إلا أن نُتركَ في هذا السُكْرِ، على هذا العمى، لا نريد أن نتغير.

(فـاصِـل)

أحببتُ بقدرِ ما قيل لي أن ليس في قلبي متسعٌ للحب.
صادقتُ بقدرِ ما قيل لي ان أحدًا لا يريد الاقتراب مني.
هجرتُ بقدرِ ما قيل لي أن بقلبي هشاشةً وأنني عاطفي.
ظلمتُ بقدر ما قيل لي أنني عطوفٌ وطيبٌ وغير قاسٍ.
كذبتُ بقدر ما قيلَ لي أنني شفافٌ وما بقلبي ينسكبُ على لساني.
مشيت بقدر ما قيل لي أنني كسولٌ بلا أقدام.
فعلتُ تلك الأشياء وأكثر، بدافعِ تخييب الظن وفقط.
بدافع حبي لمشهد التعجب الأخير، حين تلتوي الحبكة على نفسها،
وحين تتمخض الحياة فلا تلد إلا الدهشة.
أنا أحيا للدهشة.

(عندما قتلتُ أخي الأصغر)

قبلَ سنةٍ من اليوم، قتلتُ أخي الأصغر.. لم يعلمْ أحد بذلك، حتى هو.
كان يقولُ أحدهم: "في هذه المدينة، لم يقتلونا بالرصاص، قتلونا بالقرارات."
وأنا، قتلتُ أخي بالقرارات.
عندما عرف أخي أن هناك شيئًا يسمى الشارع والآخرين والعالم، شيئًا ليس بالبيت، شيئًا ليس في البيت، أقمتُ له حصارًا وفرضت عليه قوانين صارمة تستوجب مخالفتها عقابًا ما.
فصار كلما همّ بنزول الشارع، أُلقنه حزمة من التحذيرات والتهديدات: لا توسّخ ثيابك، لا تلعب بالتراب، لا تبتعد عن البيت، لا تحادث الغرباء، لا تنس أغراضك، لا تضرب أحدًا إلا إذا ضربك، إياك أن تفعل كذا، إياك أن تفعل كذا.
أقول ذلك وفي يدي عصا، أهشُّ بها عليه: لأكسو حديثي بشيء من الجديّة.
لكنه كان يعود إلى البيت بثيابٍ متسخةٍ، ووجهٍ معفرٍ بالتراب، وألعابٍ متكسرةٍ وفي الغالب كان لا يعود بشيء منها.
كنت أعنفه وأضربه حتى البكاء أحيانًا.. لم يكن ضربًا مبرحًا، ولكنه كان ضربَ مؤدبٍ ومنفذِ عقوبة.
ثم أُنيمه وأفكر: ألستُ بذلك أحميه، وأقيه شرور العالم؟!
أليس تلقينهُ النظام والنظافة وآدابهما وهو في هذه السن الصغيرة، أجدى من تركه يركض في الشارع خلف طائرةٍ ورقية تافهة؟!
أما يقيني هذا عتاب أمي وأبي اللذين يأمرانِني أن أترفق به، ويقولان: "كذلك كنتم من قبل"؟!

بعد مرةٍ ومرةٍ ومرات، عاد أخي من اللعب، بثيابه كما نزل بها، وعاد بألعابه كما هي لم تنقص مسمارًا حتى.. ولكنه كان حزينًا، قرأت ذلك في عينيه، لكنني -من وراء قلبي- أشدتُ به، وبثيابه النظيفة.

تكرر الأمر يومين متتاليين؛ فأحسست أن هناك خللًا ما، وعزمت أن أراقب لعبه هذه المرة.

وللمرة الأولى ينفطر قلبي على الصغير، إذ رأيته ينتحي جانبًا من الأطفال، يلعب وحده، أو يقوم بما يشبه اللعب، يراقب الأطفال وهم يلهون بالكرة ويتراشقون بالأحذية، ويغرقون في التراب والماء.

رأيته وبِوُدّي لو أنتزع من عينيه تلك النظرة الخائفة، التي تتنازع خلفها الرغبة والخوف: رغبة في الانطلاق واللعب، وخوفٌ من الخطأ والعقاب.

عندما عاد للبيت، -نظيفًا- ضممتُه وتمنيت لو أن أشم فيه رائحة التراب، أو عوادم السيارات أو أن ألمح على وجهه آثار شجارٍ طفوليّ ما، لكن لم يحدث.

حينها عرفت أنني قتلت فيه شيئًا ما.

يكبر الآباء وينسون -أو يتناسون- أنهم كانوا صِغارًا، يلعبون ويذرعونَ الشارع جيئةً وذهابًا، يخطئون ويتحامقون ويصرخون ويتشاجرون.

يكبرون وينسون أنهم أضاعوا الأحذية وثقبوا السراويل وسكبوا حبر الأقلام على كتبهم النظيفة.

يكبرون وينسون قواعد البيت التي ضربوا بها عرض الحائط، مواعيد العودة التي لم يلتزموا بها أبدًا، العبث الضروري مع فتاة الجيران، وسيجارة التجربة مع أصدقاء السوء.

يكبرون وينسون أنهم كبروا بالتعلم، بالتجربة والخطأ لا بالتلقين والضرب.

يكبرون وينسون، ويرث أبناؤهم ذلك عنهم، كما يرثون عنهم الاعتقاد الخاطئ بأنهم إنما يفعلون ما يفعلون، ويحجّمون من طاقات الأطفال ما يحجّمون، خوفًا عليهم، واختصارًا لطريقٍ طويلٍ، لا يقتنعون أن المرء يجب أن يسيره بنفسه عاجلًا أو آجلًا، اسمه: التجربة.

بعد قليل، سيدخل أخي عليَّ الغرفة، متسخَ الثياب.. سينظرُ لي بالرأس المطأطئ، والوجه المتوتر.. سينتظر أن أعنّفه أو ربما أضربه، لكنني لسببٍ ما لن أفعل.. هذه المرة لن أفعل، سأعيد له الحياة.

ها هو!

(رجلٌ في المنتصف)

أحب الكثير من الأشياء، لكنني لم أعشقْ منها واحدًا.
وأكره الكثير من الأشياء، لكنني لم أبغضْ منها واحدًا.
وأفعل الكثير من الأشياء، لكنني لم أتقنْ منها واحدًا.
وأهمل الكثير من الأشياء، لكنني لم أهجرْ منها واحدًا.
وأُعجبُ بالكثير من البشر، لكنني أخافُ أن أقترب منهم.
وأحب الكثيرَ من البشر، لكن لساني لا يُسعفني في إخبارهم.
وأستمتع بالكثير من الأغنيات، لكنني لم أصل لنهايةِ واحدةٍ منهم.
وأقف كثيرًا أمام لوحاتٍ جميلة لرسامين مغمورين، ولم يحدث أبدًا أن قلت لواحدٍ منهم إنه موهوب.
وأدهشُ حين أرى بشرًا في منتصف الطريق وأزدريهم، لكنني وصلتُ حِذاءهم ووقفت.
هذا أنا.. في منتصف الأشياءِ دائمًا.
في منتصف الطريقِ والحبِ والكرهِ والإتقان والهجرِ والإشادةِ والمتعةِ.
دونَ الواثق وفوقَ المتشكِك. كالمُنبَتّ لا أرضًا قطعتُ ولا ظهرًا أبقيتُ.

(كـاتبٌ تـحتَ الطّـلب)

لستُ أدري، لماذا يصرُّ بعض أصدقائي على معاملتي ككاتبٍ مأجورٍ تحتَ الطلب.

هنالك فرقٌ كبيرٌ بين أن تكتبَ لأنك تحس وتشعر وتتأثر ثم تريد.. تريد أن تكتب حالًا.. مهما يكن الظرف ومهما يكن الموقف.

وبين أن تكتب لأنك أُمرتَ بلطفٍ أو طُلب منك بِعشمٍ جارف.. والعشم قتّال وللصداقة أحكامٌ كما تعلم.

أرسل أحدهم لي مرةً يطلب مني (باعتباري كاتب الجيل وأديب الحي والملهم الموهوب) أن أكتبَ له إعلانًا لمطعمِ (فول وفلافل) سيفتتحه ابنُ خالته بعد أيام، ويريد أن أكتب له (بإيدي اللي تتلف ف حرير) إعلانًا مجنونًا يقيمُ الدنيا ويسحبُ الكرسي من تحتها فلا يقعدها، ويخلق جوًا من الشاعرية والرومانسية الحالمة (زي ما عوّدتنا كده يا أديبنا الكبير)!

ناهيك عن أنني لستُ أديبًا ولا نصف أديبٍ حتى.. ورغم أننا أصدقاءُ منذ يومين وخمس ساعات فقط.. إلا أنني أوافق وأرضخُ لطَلبهِ المُهذب وأخجلُ أن أرد سؤالَه، وأعده أن أكتبَ له إعلانًا على رغم الجو المشحون وانشغالي باللاشيء الذي أفعله كل صباح.

ثم أخلو إلى نفسي، وأنا ألعن عجز لساني عن قول (لا)، وأشكو إلى الله قلة حيلتي وضعف قوتي وهواني على أصدقائي، وأحاول أن أكتب له الإعلان كما طلب.

بحق اللعنة!

أين الشاعرية في أقراص الطعمية وسندوتشات الفول!

كيف أقحم اللفظات الرقيقة والتعبيرات الرنانة بين قطع المخلل وشرائح الطماطم!

يصيبني الهلع، وأحس أن الله انتزع مني قدرتي على التعبير، وأعادني فردًا عاديًّا لا يُحسن استخدام اللفظ ولا انتقائه.. وأخاف.. أخافُ أن ينفضّ الناسُ من حولي بعد أن يثبت لهم بالدليل القاطع أن (أديبهم المفوّه وكاتبهم الملهم) عجز أيَّما عجزٍ عن كتابةِ إعلانٍ لمطعم فول وفلافل!

أنام ليلتي مؤرَّقًا، أسهر وأغفو، أذكرُ العهد وأصحو، وكلما دهمني قطار النومِ السريع، أهب فزعًا على صوت صاحبي هذا: (عاوز إعلان مجنووووون...مجنووووون).

الحقُ أنني في صباح اليوم التالي، أرسل له رسالة تعتذر عن تلكؤي وتأخري غير المقصود تمامًا، وأنقل له كلماتٍ أرتجلها في الحال من قبيل: (إن أردت أقراص الطعمية الشهية مع المخللات والمقبلات الشقية، وسندوتشات الفول يا عينيا، والمسقعة المية مية، لازم تزورنا في مطعم حودة ابن أم حودة.. طعمية أسخن، حياة أحسن) ثم أغلق المحادثة وأهيل عليها التراب.

هل انتهى الأمر عن هذا الحد؟ بالطبع لا.

يتكرر الموقف مرة ومرة ومرات: صديقي هذا يريد إعلانًا لمجموعات دروس في الأنثروبولوجيا، والثاني يريد رسالة معايدةٍ لزوجة ابن خالة أمه التي وافتها المنية للتو، وثالثٌ يريد أن أكتب جوابًا غراميًّا نيابةً عنه لحبيبته الغاضبة لأنه زعقَ في وجهها وقال لها: أمك قرعة! وغير ذلك مما لا يتسع المجال لذكره.

صحيحٌ أنني أكتب بالطلب أحيانًا حين يتعلق الأمر بشأنٍ عامٍ أو شأنٍ دراسي أو غيره، وحين أُلزم نفسي بكتابةِ مادةٍ ما لمدونةٍ أو منصة.. لكن

حين يتعلق الأمر بالمشاعر والأشخاص والعلاقات؛ فإنني أمتنع وإن كتبت.

أمتنع داخليًا وأحجز مشاعري وعواطفي التي هي أصلُ ما أكتب.. ولا أبيح لنفسي إقحام أنفي في حياة شخصٍ آخر وعلاقته بحبيبته أو أمه أو زوجته!

ليس لِزامًا أن تكون أديبًا لتقولَ أحبك.. وليس من الضروري أن تزيّن ما تقول بل أن تعنيه.

نحن لا نحتاج للهرجة بقدر حاجتنا للجوهر، الجمالِ الداخلي، الكلمات المبعثرة غير المرتبة التي تكسر باب القلب وتسكنه دون استئذان.

هناك الكثير لأقوله في هذا الصدد؛ لكنني مضطرٌ لأن أنهيهُ عند هذا الحد؛ فأنا منشغلٌ بكتابة برقية تهنئة لابن أخت صديقي بمناسبة طهوره هذا المساء.. ويجب أن أرسلها حالًا.

(أمنياتٌ أخيرة)

لو منحني اللهُ ليلةً إضافيةً قبل أنْ يقبضَ روحي، لطلبتُ منه أن ينتزع مني أي إحساسٍ بالندم، مهما كان ما قدمتهُ في حياتي؛ فقد اكتفيتُ من الندم.

سأقضي تلك الليلة في الشوارع، أمشي بلا هدف، أطالعُ وجوهَ الناس على مهلٍ، دونَ خوفٍ من أن تفوتني المواصلات أو أن يطلع النهار، أبتسمُ لهم، وأطمئنهم، وأسامرُ أبناءَ الليل ومَنْ لا أحد لهم.

لو منحني اللهُ ليلةً إضافيةً واحدة، لَتمنيتُ غرفةً مليئة بالأصدقاءِ والأغاني والأزهار.

سأصادقُ الوحيدينَ، وأجالس البؤساءَ، وأواسي الحزانَى وأبناءَ البُكاء.

سأقرأُ الرسائل التي كُتبتْ ولم تُقرأْ، سأسمعُ الأغاني التي أُهملتْ ولمْ تُسمعْ، سأكونُ جمهورَ أنصافِ الموهوبين والذين يستحقون فرصةً ثانية.

سأمنحُ الجميعَ فرصةً ثانية، لأنهم يستحقونها.. حتى الوردةُ التي لمْ ينتبه المارةُ لها ولرائحتها، سأقطفُها مرةً ومرةً ومراتٍ حتى أموت.

لو منحني اللهُ ليلةً واحدةً قبل الموتِ الأخير -وقد مِتُّ كثيرًا-؛ لتمنيتُ قبل نهايتها بدقائق، أنْ يمنحني حياةً جديدةً أو قطعةً منها على الأقل؛ لأطلقَ سراحَ كلماتِ الحب التي طويتها في صدري، وأقلّمَ أظافرَ الكراهية التي نشبت في قلبي ولساني، وأفتحَ قلبي على مِصراعيه لمنْ أراد سكنًا وملاذًا آمنا.

سأقولُ لأمواجِ البحرِ أنْ تعلو وتبللني إنْ شاءت، لنْ أهربَ منها.. سأتوسلُ النجومَ لِئلا تغيب. سأقبضُ على رائحةِ المطر وأحتفظُ بها في

زجاجاتٍ لأيام الصيف.. سأرقصُ في الشارع متى نام البشر، وأذهبُ للسينما كلما أُتيحتْ لي الفرصة.

لو أعطاني الله زفيرًا أخيرًا؛ سأطلبُه هادئًا سلِسًا غيرَ مؤلمٍ تمامًا، سأُخرجه مغلّفًا بالشكرِ الجزيلِ والامتنانِ الواسع لأولئك الذين جبروا كسري، وضمَّدوا جِراحي، وأنهضوني حين سقطت، وتلقّوا عنّي عددًا من صفعات الحياة، وأعطوا أحلامي أجنحةً لِتطير.

لو لمْ يكنْ لي سوى أمنيةٍ واحدةٍ فقط: لتمنيتُ ألَّا أموتَ وحيدًا.

عن الكاتب..

أيمن سعد ربيع, مواليد 1999, يدرس الطب, ويخطو أولى خطواته في طريق الأدب.

للتواصل مع الكاتب:

Facebook :https://www.facebook.com/ayman.rabiee.79

Gmail : ayman33saad@gmail.com